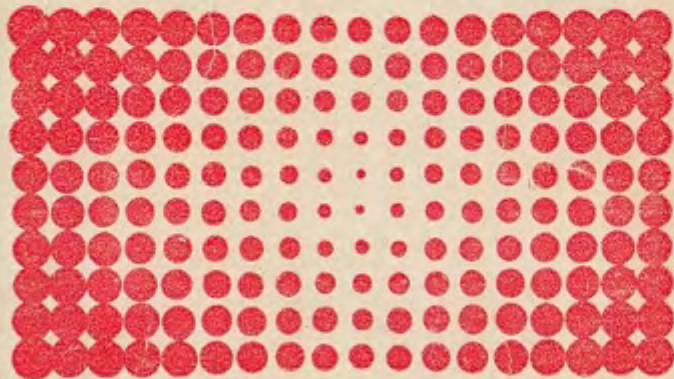


حيدر حيدر

الومض



قصص

حيدر حيدر

الْوَمَض

قصص

منشورات
اتحاد الكتاب العرب
دمشق
١٩٧٠

جميع الحقوق محفوظة

الوِضَى

صمم الغلاف
عبد القادر ارناؤوط

قصص الكتاب

الصفحة

٩	الصخور
٢٧	طقوس للعار
٤٩	القتيل
٥٩	الصيد وحكايا البشر
٧٨	صيف محترق
٩١	الومض
٩٩	حميمود
١١٥	حالة طلق
١٢٦	العكر
١٤٥	الخشوف

الصحور

- هذا الطفل لا مبرر لرؤيته هذا العالم !

قلت هذا ونقرت بطن المرأة المنفوخ انت متراجعة بحركة
دفاعية ثم لوت رقبته الما
- أيها الاحمق

كما قبلت هشاشة الحياة ، قبلت هذه المرأة المولودة من
الضلع المناقض للحركة والتغير

سأهاجر ذلك هو العزاء للذين فقدوا القدرة على الانتحار .
وقفزت الى المكتبة تناولت بعض الكتب وركمتها في الحقيبة ،
ومن خزانة الثياب أخرجت عشيقتي الزنجية الفارحة بضربة
خافقة عريتها من ثوبها ثم قذفتها في الفضاء فاستلقت على ذراعي .

قبلتها بهوس ثم اسندت أخمصها الى كتفي وصويت من خلال
زجاج النافذة خط التسديد - الشعيرة - قمة قاسيون
طاق طاق طاق ثبي ايتها الارانب ، وانفري يا ديوك
الحجل ، فعما قريب تبدأ لعبة الفرح والموت

في غلاف قماشي قديم لفتها قمطتها كيلا تنخدش
ومددتها بين الثياب داخل الحقيبة نامي هنا ياعروس الموت
قالت المرأة التي تزوجتني خطأ نسيت علب الخرطوش

كرجت نحو المكتبة ثانية فتلني فرح فرح متوهج
حملني الى المنحدرات وأنا أحمل علب الخرطوش ، وأضمها الى
صدري كيلا تنهار صاح فرح الرحيل افتحي الحقيبة !

وفي جوفها هيلت صناديق اللعب الملونة

فجأة من مكان ما من الغفس شالت أغنية

» داخل حدود المدينة المسيجة بالاسلاك

يحلم السجناء بالهروب والشمس الصاحية

هناك في المرتفعات الشرقية

قرب مهد الشمس

ينقر السمان حبات الغار السود

طيور الحجل فوق الصخور تغني

وتنفض البلل عن اجنحتها

والصيادون خبيا يرتقون المرتفعات .

والمدينة هنا كهف ،

على بابة عنكبوت ،

وفي المدخل علامة

الصيادون من سلاطات الشمس والافاق
والعنكبوت ينسج بهدوء ،

والعلامة تقول هنا مقبرة التاريخ »

ومرت غيمة الحزن تجاوزت قاسيون نحو اماكن اخرى
اشارت المرأة ان اصطحب المعطف رددت بفظاظتي التي لاتطاق:
اعتني بنفسك ايها المرأة الوحيدة

قالت متجاوزة هل ستذكرنا وانت تشوي الارانب ؟
هزرت رأسي ، وتشاءبت ابتسامة دخيلة لا تنسي
الوصية أجهضيه

ندبت أخمن انك لا تنوي العودة أيها المجنون !
تمنيت أن أقول لو كان بودي غير انني رشقتها ببسمة
هزء

زقق بوق السيارة زغردات ثلاث ، فعاد هبوب الفرح يشيل
حملت الحقبة ووثبت هيه وداعا
- لن تقبلني ؟

- خذي وسفحت شفيتها بقبلة نار قديم
خطفاً رمقت دموعها تنهال فوق وجنتيها يا للتعيسة
وكنت مجنوناً بفرح الرحيل عن مدينة الرياح
السيارة تطوي الطريق ، والرغائب تتيه في النفس كضباب
الاودية وهو يتسلق السفوح نحو القمم خلفي الآن تستلقي
المدينة التعب ، خرابة مهجورة كساها الفبار وخيوط العنكبوت.
من خلال زجاج السيارة رحت اتصيد انتشائي بالاشياء
السهول ، الروابي الصغيرة ، السواقي الجافة ، ثم شريط
الصخور الممتد على طول الافق الغربي بدا وكأن صاعقة قصمته

فبان كشاهدة قبر لقاسيون المتأبد

سته عشر عاما من الانتماء لتلك المدينة المهجورة للبشر ،
والاحداث ، والمستقبل وسدرتني غفوة حلمت خلالها بأنني
طفل يلعب فوق مروج ربيعية ، توجتني الفصول ملكا ، وقدمت
لي حوريات سلالا ملأى بالزهر والفرح وعدتني بشموس لا
تغيب وظلال من قمح وحرية وعدل
يا للأحلام الربيعية !

ها انذا استيقظ ، فارآ من برودة الكهوف ، بعيدا عن
الخرائب التي هاجمها الحزن والصقور الجبلية الجائعة
أحلام الطفولة سافرت نحو جزر قصية لا وجود لها ، وانا
لم أرغب أن اكون ملكا

كان الصمت عادلا داخل قبو السيارة ، احسسته منحة
سماوية مع هؤلاء الغرباء في الطريق الطويل كنت اسرق
تأملاتي بروعة الاشياء الجائمة في الخارج ومع نهر الزمن كنت
انعطف بحرية في تيه دمنة النفس

بالصيد حلمت ، وانا أرى الجبال من خلال الزجاج
تصورتها مليئة بالارانب وطيور الحجل وانا اتسلق وراءها والهت ،
افاجئها فتذعر ، اطلق عليها فتتهاوى على جبهة السفوح
الوعرة ، مكسورة الاجنحة ، تتخبط فتلطح الصخور بالدم ،
ثم تركز

اشعر بالتعب فأستلقي في فيء صخرة سامقة ، وانا م على
الارض بوداعة طفل وحيد منهك

في غفلة الصيد ، فاجاني المطر راحت قطراته تضرب زجاج
الواجهة خيوط فضية مائلة تشطب الفضاء ، ترهج في أصيل
الشمس قالت النفس بمودة سرية لماذا الخيبة تحت سماء

تمنح المطر ؟



مذ قرأت أول كلمة في سفر هذا العالم الهائج ، طوقني
الحزن صار التكيف مفقودا وخلال مسيرة الاعوام الطويلة
التي مرت ، لم استطع تفسير حالة الحلول بين نزوعي الفردي
الحاد ، وبين غوصي في نهر البشر كنت احدث انني سألتقي
بمثالي الضائع بين ملايين مفقودي الهوية عبر الاسلاك والاشراك
التي نصبت على هذه الارض ، وغالبا ما رغبت الانسحاب الى
طرف قصي ، لكن محاولاتي

واليوم ومدينة احلامي تخور بالعجز ، ما الموقف ؟

للارض رائحة الحريق ، والشوارع تبدو مقفرة ، ومدينتي
التي احببت ، دخانها يسيل الدموع مدينة مقفلة في وجه
الرياح تمطر خيبات على الصغار امثالي ، وليس سهلا الجواب
على : لماذا يشوه الرجال الحمقى مدينتي الزهرية ؟

استمر المطر ينشد اغنية الحزن الممتعة سألت السائق
ان يفتح الراديو ، مع اغنية المطر انتشرت غلالة فيروزية بددت
صمت المتاهات قال الحنين أنا اغنية صيف قديم ، هاربة
من مزموور داؤود كلمة مفقودة من نشيد سليمان اتيه وحيدة
خلف زمن الانسان

وتذكرت الفصل الاول من مسرحية حياتي

في شعاب مدينتي كنت ارى الانسان طفلا وماردا وهو
في حالتيه سيد التغيرات وكنت اتساءل أي فرق بين النبي
والانسان ؟

ومن روايي النفس الفضة ، كان الجواب يأتي حاسما
ولفترة اقتنعت باسطورة النبوة كان مثالي اكبر مني يتطاول

طيفاً مبهما يسدّ نوافذي ذات يوم حلمت انني صرت بطلاً ،
وعندما مشيت في تيار نهر البشر المتدفق وسمعت الهتاف
والتمجيد ، لمست خيوط التحول الممتدة بين حماقة البطل
وهشاشة النبي

ذلك الفصل امتد اعواماً ، علمني أشياء كثيرة لا تنسى
كان لي فيه اصدقاء وعشيقات وآلام خاصة ، اذكر منه حواراً
جرى بيني وبين صبية أحببتها
- هل تأتي الليلة ؟

- لا ادري

- لماذا ؟

- ثمة عمل

- بطولي ؟

- لا

- بتهمك خلية اخرى ؟

- بفضب انت امرأة قدرة

- وانت اله اجوف قملة في صحراء هذا العالم

- اخرسي

- خائبة سأخرس لكن انت ستنسحق

-

وعندما ارتجت الباب خلفي بعنف لئلا اصفعها ، صرخت
في رأسي

- قلاع الاحلام الرملية تهدمها الرياح يا طفلي الصغير

اثر الحادثة سرت في شوارع المدينة ، طوفت حول كمبتي ،
وكنت ارتعش من الخوف والوحدة الداخلية

قلت أشعر الصقيع في عظامي
قالت المدينة لا تخف سأحميك منازل الزاهية سقف
حياتك ، ودثري صوف وطيلسان اخضر
- ارغب بيتا صغيرا نائيا كواه مفتوحة للشمس والحرية
قالت المدينة سيكون لك ما تريد
- أشعر بالوحدة !

قالت بحنو دافئ أنا أمك وام الملايين
- لكن المرأة قالت اني قملة !
بزهو بل أنت ملك الفصول ، من اجلك ولد الزمن
والحقل والنجوم ولاجلك يصنع التاريخ وتميد الارض
بالثورات

- ثم قالت اني احلم
همست لي في رحمي ينمو مثالك ويوم الوضع سأقدمه
لك على وشاح غيمة يومها سيهمي مطر غزير فوق الزرع ،
يعمر الارض زهو ورقص وميجنا ، وعن الجميع يرحل الليل
والدم وبؤس السنوات وعاد الامان لي انهيت طوافي الليلي
على الحراس والخلايا وبحرارة شددت على ايدي اصدقائي
الاطفال :

قريبا تتكسر الاصفاذ ، وبدل الملح والصبار نأكل خبزا حارا
من حبوب السهول نثيه فوق الارض نبني بيوتا للبشر المنبوذين
ونزرع حدائق الحرية يزهر العدل مع الشمس ومع الزرع
نغني في مواسم الحصاد المجد للاطفال والمتعبين والجياع
المجد لكم يا اصدقاء طوبى للفقراء والتائهين لجميع الفقراء
والمعذبين على هذه الارض
بذلك هجست في خاطري مدينة الصبوات

★ ★ ★

ما تزال السيارة تجري ، والمطر ينهمر تحاول مساحتنا
الزجاج صدّه لكن القطرات تتمرد والسائق يدخن

قربي راحت ثرثرات عادية ترمى لازاحة الملل ورويدا راح
الليل يرتمي كرة من هلام اسود والسيارة تشق رحم الظلام
ويهاجر نشيد سليمان الفيروزي فيسدل ستار الفصل الاول

كان عشقي للمدينة قد تحول الى نوع من الهوس نسيت
حب الصبية وهجرتها

في الفصل الثاني دربطني المدينة على قتل نزواتي الفردية
لاهبها ما تبقى من ثمالة العمر

كنت أجوس في الدروب الوعرة مبشرا اتشرد في
شتاءات الايام وانام مع الجياع والمنبوذين أغري الاطفال بالشموس
الوضيئة ، واعدتهم بخمر الميلاد والخبز الابيض ستكون لكم
مدينة ملالاة حقول حنطة مخضرة مد البصر في قراكم يزهر
الحب ، ويبادركم مصونة من الطيور الغريبة ، وفي كل مكان لكم
اصدقاء حفاة من نسل الارض التواقة للانفجار وعلى مدى
الآباد ستزدهر الطمأنينة في نفوسكم السلام والهدوء والمجد
لكل طفل الحب والحرية والقمح لكل انسان

وفي اخريات طوافي النبوي ، اعود مجهدا الى كوكبي
استلقي على الفراش واهجس :

— هوذا العمر يمضي

— انت رجل خلاق تهمس المدينة

— اخاف السراب

توسوس سلام للمبشرين بمدائن الانسان ، بربيع دائم
وممالك لن تغرب عنها الشمس والفرح

— اخاف الجرح

تهلوس الفتح قريب اسراب الجراد سترحل ستهبا
الرياح من كل الجهات وتسقط الحواجز والإسلاك الفرسان
قادمون على خيل صهب والزغاريد ستعمر الكون

وبين الوسوسة والهمس أغفو نشوتي أحلام
اقحوان ، وفرحي برائس جن في هواج منشورة على مدى
الصحارى



فصل مدهش

المدينة تتزيا بأبهى الفرح انا مع الاطفال نرقص ونزغرد
في عرس امنا نشدو جاء الميلاد جاء فارس التاريخ
والفتح فيا أرض اهزجي

وتמיד الدنيا القيامة والنشور وفي طول الارض وعرضها
ترتفع المشاعل الدروب ريحان أخضر ، وبشر كالطوفان انتشروا
تحت الريح والمطر ، اكفهم صنوج نحاس ، وحناجرهم رعد
سماوات ظامئة تدوي في يوم الحشر
وفي ليلة شتائية قارصة ، تقدم مفاتيح المدينة لفارس
الزمن

تزف مدينتي في عرس استمر سبعة أيام بلياليها ، لا أحد
يأكل ولا يشرب ولا ينام الا الرقص والغناء والزغاريد في عرس
مولانا السلطان

وفي اليوم الثامن يفصل الحراس الليليون ، بالمدينة الآمنة
المفتوحة الابواب ما عادت بحاجة اليهم ، ويقال للمجهدين ارتاحوا ،
فقد انتهت الحرب

وفي اليوم التاسع أنام ثلاث سنوات متواصلة

★ ★ ★

انتهت نشرة الاخبار وهمد المطر قليلا اطفأ السائق لفافته
ورمى بعقبها من النافذة

اشعلت لفافة في الصمت الليلي انمطف الزمن بي ودار
وانهمر حزن كهذا الليل. قالت الكأبة أنا غجرية سوداء أنصب
مضاربي قرب الصخور البركانية ، ولأن عشيقتي غادرني ولم يعد ،
أظل أنتحب حتى مطلع الفجر

فصل مفجع

حكاية بلهاء عن مومس أزمنت الزنا مات بهاؤها في زحمة
الايام السود امتص الزمن رحيقها فتفضنت

عقيم ليس في رحمها مثال، تحن لفارس قديم انتهكها وغاب.
ولأن أرضها بوار وأعراسها بلا بشر ، تحاول أن تلملم لقطاءها
المفجوعين لينشدوا لها الفرح
« من أين يأتي الفرح يامدينة المجوس ؟ »

جميع الاطفال ماتوا في زحمة العرس، والذين حلموا بالبيوت
الشمسية وقمع السهول يسكنون على ضفاف الشوارع ويعجنون
الدموع المقهورة

★ ★ ★

في مرفأ الصبية القديمة بت ليلتي محاربا يعود مكسور
الرمح في شوارع مدينتها سریت داخل لیل خافت الاضواء
في يدي حقيبتتي وفي رأسي شظايا الفصول
قالت النفس هنا يقطن شاعر قديم ينسج خيوط أيامه

على نول الغربة ، ويفني خيباته في ضوء القمر ، ربما كان العزاء
سمعت هدير البحر ، وصياح النورس فوق الخلجان خبت
الخطوات اكثر غب انسكاب المطر ولجت زقاقا معتما ثم قرعت
الباب

ناح صوت خافت خائف من هناك ؟
اقتربت الخطوات من الداخل وعاد الصوت يسأل
تكسر صوتي : القملة !

وصر مزلاج الباب ثم انشق ويذا ويذا تسربت حزمة
ضوء اخترقت الحزمة صرت على أرض الغرفة المضاءة

امراة تخطت حدود الثلاثين ، مليحة ، سماتها امومية ، وفي
عينها حزن وجوع جزائر وحشية لم تكتشف كانت سامقة ،
ملأت حضوري وفي لحظة كالبرق بددت لي جميع احزاني
القديمة

كانت مشدوهة وعلى شفيتها بشائر صرخة ، وهي تحلق بي .
فجأة تبلغ الصمت ، غار في تحولات الزمن وهمس أنا جسر
المعجزات بناني اله العجز والدهشة امتد من أقمار الحلم حتى
رحم الارض العاقر

وكأني فارقت طفلا عاقا انشجحت على صدري احقا هذا
أنت ؟

من بين ذراعيها انسلت اترميت على الديوان وأشعلت
لفافة

- هل أستطيع أن أبيت الليلة هنا
رنت نجوي بانكسار عاتب ما تزال تفتعل الحيايد
قلت بلا مبالاة لا الآن أنا محايد حقيقي .

- علمك الزمن ؟
- والمدن الخائنة
- وأردفت أنا جائع
- هيات المرأة عشاء متواضعا ومن حقيبتني تناولت بطحة عرق
- وبعد الليلة ؟
- الى الجبال
- ماذا هناك ؟
- صيد
- على المائدة سألها لماذا لم تتزوجي ؟
- ابتسمت باستخفاف : في الصدر لم تعد هناك أحلام وأشارت الى صدرها
- مضغت لقيمات وشربت بعض الخمر ها أنت تعود أخيرا !
- امراتي حبلى ستضع ولدا
- كيف هي مدينتك ؟
- لست راغبا بالطفل مشوّه بالوراثه ، وملوث
- اما تزال المدينة كهف حياتك ؟
- الاطفال اغبياء وكذلك النساء ما عاد باستطاعتي ان احب احدا
- من جديد انسكب الصمت ، وراحت ساعة الطاولة تزيد في ايقاعه كان صمتا كثيبا ، وخارج الغرفة تناغمت زخات المطر مع دقات الساعة
- مرة أخرى خيل الي انني اسمع صوت النورس ، يخفق تحت المطر في سماء حزينة نحو مدن خربها طوفان البحر ثم انحسر

عنها هناك يبني النورس أعشاشه ويضع بيوضه قالت
النفس الجبال بعيدة لا يصلها الطوفان ، والصيد حصاد بقايا
الشموس التي أفلت

دقت الخمرة الابواب الموصدة ، ثم فتحتها للريح صارت
النفس سفينة منشورة الأشعة تعبر جزائر الفرح ولم يكن لها
جهة غطاني الحزن بعباءة شفافة ، ثم أبحر بي ، وارتميت في
حضن المرأة أنشج



ها انذا أعانق عفوية العالم القفر جميع المدن قد توارت من
الذهن . وحيداً أتلطع فوق هذا التراب المجبول بالمطر أطيّر في
الهباء وأغني ، منحدرًا في سفوح البراري بين الغابات ، واثباً
كأرنب بري هارب

في السماء يتكاثف الغيم ، يستر وجه الشمس ، وعلى
الأرض ترتمي ظلال كثيبة تنفرش فوق الصخور والنفس

يهطل مطر خفيف ، ثم يشق صدر السماء خيط متلوّ كالجرح ،
يعقبه هدير تخنع له الأرض ، فأشعر أنني في موكب القيامة

تحت المطر والقصف أسير ، محتمياً بالأشجار العارية ،
وبأجم السنديان . ويعنف المطر ، فأركض إلى كنف الصخور ، تفزو
سممي أصوات الحجل والمحها تسفّ فوق المنحدرات فاردة
أجنحتها الرمادية باتجاه الأدغال .

يطردني وكف الصخور ، فأنسل تحت الخيوط المنسكبة
مخوّضاً في مروج النمص والشوك. الفرح الوليد ينمو ويتعاضد
نمو المطر واثبلاً تعب وصقيع يتسللان عبر لحمي العاري
وتبدأ أولى العرشات

اصعد الجبل ليس ثمة دروب سالكة ، احاول الاحتماء
تحت ضلع صخرة مقوسة ، اثقوس على نفسي والتحم أكثر
بجسد الصخرة لتحميني

ويهجم الليل ليل موحش فوق أرض مقفرة ، مزروعة
بالتوقعات والفرح الخائف

صمت صمت صمت يودي الى صمت حتى ايقاع
المطر تحول الى نذير وحشي ، الى ايقاع موسيقي يوحى بالغربة
والتوحد هذا الصمت الكبير الممتد حتى منافذ الافق هو
الرعب الحقيقي

احاول ان اشعل لفافة ، لكن الثقاب مبلل فامضغ السيكرة
بلذة مرة يزداد تسكاب المطر ، فأشعر بأنني مهدد. في
هذا الطوفان الجديد

تزداد الرعدة واحس انني على ابواب التصلب احرك
اصابع يدي وقدمي داخل الجزمة خوف التشنج اغرس اسناني
في شفتي السفلى ، ثم اثب خطوة الى الامام : لم تمت بعد
أتناول البندقية الموكوة على ضلع الصخرة ، وادخل نطاقها
حول رقبتني فتصير متصالبة مع الظهر ، ويصرخ الالم في
مجموع جسدي لكن النفس تتمرد

انحدر شيئاً صغيراً يتجرك في ليل موحش بحثاً عن
ضوء . فوق مروج النمص القائمة المصقولة كسطح من جليد رحا
اتزحلق ، زاحفا كحيوان نحو الوديان عبر الظلام الشاسع

وتسامق الظلام ، صار غولا غيبني في جوفه كنت ما ازال
ادب متئدا كدودة فوق العشب الحريري خوفاً السقوط في
الهاوية السحيقة

فجأة انزلق ، أسقط على ظهري ، تنجر يداي بحثا عن شيء
تعلقان به ، فتنسحبان فوق الحصى الناتيء والشوك يتمزق
جلد كفي فأشعر بحرارة الجرح والالام وأنا أمسك جذع ريحانة
صغيرة انتهت مروج النمص الملساء ، وبدأت أتوكأ فوق أرض
محسبة ، هاويا باتجاه ضوء لمحته . ثم أصدى الصمت مرة أخرى .

خف هطول المطر ، لكن ظللانا أعمق من ظلام المحيطات كان
ينهض أمامي الآن ارتطمت قدمي بصخرة فالتفتت حولها في
شعب ، ضيق ، صدمت ركبتني صخرات صغيرة مسننات
فغيرت اتجاهي

وقفت قليلا ثم حدثت في بحر الظلام المخيف

على مدّ ابصر أشباح كالحة كالبماسيح تقوم في وجهي
تجاوزت قسما منها ، لكنها كانت تتوالد من أرحام بعضها البعض
صانعة سدا وحشيا لا يقهر

منذ لحظات انتهى الصيد ، وحرب النمص والزحف ،
وها هي حرب أخرى تقوم

أنا وحدي بين هذه الضلوع الصلبة البدائية أحاول انقاذ
جلدي أشباح تسد المنافذ ، ممتطية صهوة هذا الليل وحماتها ،
تضرب في أعماق الأرض ممتصة خصوبة التراب مانعة الجذور من
التغلغل ، ها هي تتوالب كفيلة مهتاجة تبغي لحم فريسة صغيرة .

— « لن تموت لأنك وحيد

وأشعر انها حربي وأنني عدو فيفرغ ذهني من المعادلات .
قد تطول المسافة ، قد تطول الحرب ربما يفقد الزمن قيمته
مع هذه الوحوش القائمة في أرض الغابات البكر ، غير أنك لن
تموت بطريقة تلقائية لاتود أن تبني شيئا فيما بعد ، ولن تحلم

بعد اليوم بمسكن ومروج وأطفال بله ، ما يهملك ان تحتفظ
بظهرانيتك ، بتمردك الخاص خارج هذا الجحيم المتلف

هنا في هذا الغاب تنبثق هذه الصخور بتلقائية مريعة ،
تتوئد في مملكة الانسان لانها الاقوى ، وهي ليست أكثر من
صخور مجوفة حمقاء، نبتت في غياب الصيادين والزراع ، لكنها
لن تستطيع قتلك

ركضت بينها فصدمتني. طعننتني في صدري فسقطت فوق
بندقيتي المعلقة على ظهري. ركضت أكثر فشجت رأسي وجبهتي.
على جدرانها سال دمي وقرات فوق شواهدا حياتي التي تسقط
وحياة احبتي تجاوزت قسما منها فانفجرت بوحشية اعظم
امسكت بالصدر التماسحي الخشن أيها الجلد الأبله الفاصب
انني اكرهك !! باصرار حاولت اجتيازها فطعننتني أيضا حاولت
تسلق صخرة كبيرة فوقعت على وجهي ، وشعرت شيئا في
جسدي يتكسر نهضت والحمى تترامح في جسدي ، ومن
يأسي وجراحي حفزت قوة وثب رميتني على سطح صخرة

حشوت بندقيتي وصحت بوحشية انسان يرفض الموت
خذي ورحلت أطلق خذي أيضا

وبجنون راح صوت الطلقات يدوي الأودية والنفس رددت
صداه تسللت الراحة مع الدوي والصدى فشعرت بغيطة
انعناق



في الصباح كنت ما ازال مصدوعا والمخدة مبللة ، وفي
الفراش لا يوجد اثر لامرأة

كان ريقى جافا وفي معدتي جشأ زئبقي ، وجسدي ثقيل

ومنحك تحاملت لافتح النافذة ، فجأتني عصابة بيضاء تلف
يدي ، واذا نظرت في المرأة لمحت وجهها غريباً مشطوباً وعينين
قد تورمتا

بهدوء للممت أمتعتي المبعثرة على الأرض لمحت شظايا
زجاجية والساعة مطروحة على وجهها تدق بخفوت مسموع
ولاول مرة ، ارى الغرفة تدور كأنها الأرض ، والمخ صور
الاشياء تنفثل بسرعة السرير ، ولوحة الجدار سفينة كبيرة
بنية تتأود مائلة بصوايرها وسط لج هائج الديوان الزهري
المنضدة الصغيرة المحفورة السطح ، عارية وسط الغرفة ، ثم انا
هذه الموجة المنكسرة على صخور الشواطئ



آه تلك الأم تزغرد وتبكي في مواسم الصيد ، تنتظر
عودة الفارس المهاجر ، وفي يدها باقة حبق ، تطرش البيت
بالحوار وتنفض الغبار عن صورة ابنها المعلقة على الجدار أقول
لها فيما مضى

- لماذا الحزن ؟ نحن في المدن يا أماه بنني مجد الزمن ونهيء
الحرية والفرح لجميع اطفال العالم

فتغرغر بدمعتها أنت مجدي يا بني لتكن ارادة الله معكم
ها ها ها سلاماً أيتها الامجاد القديمة سلاماً
أيتها الشموس التي كانت وضيئة . سلاماً يا أمي
سلاماً يا افراحنا التي انطفأت

طقوس المعار

عندما غادر علي الراعي « الصبوحية » لم يكن يملك مالا ولا أرضاً كانت ثيابه عتيقة مفرجة ، لكنه كان فتيا بقوة الصخر

في يسمعه وهو يغادر بيته العتيق. ، والشمس تنحدر نحو البحر ، رن صوت امه كن عاقلا في بلاد الغربة واذا تباشى الصدى ، ارتعشت في اعماقه حكمة قديمة كبيتة العقل زينة الانسان »

جرى على الطريق الفباري ، ثم مالبت ان انحدر في السفح ، والفرح يزقون بين ضلوعه ، ولما احس بأنه أصبح بعيدا عن الصبوحية وثب في الفضاء كفحل معزى فوق مروج خضر ، ثم فرد يديه ووصفق بسخرية فرحة ، واندفع كقذيفة يعدو باتجاه الحرب

امضى علي الراعي طفولة بائسة في قريته . عرف الجوع والعري واضناه التعب . كما كانت بنات الضيعة يهزان من انفه الدقيق المتوي وصلعته وتأتأته عندما يتحدث معهن

الآن انتهى ذلك وانتهى ايضا الاستيقاظ الباكر لرعي الدواب ، وغابت وجوه الفلاحين الكتيمة المغضنة وثرثراتهم وهم يعودون من السهول ، كما ارتاح من قرص البراغيث في البيت المسقوف بالشوك والتراب والحطب والفئران

— « وداعا ايها السجن القديم الممل ! »

همس لنفسه بصمت ، ثم لوح بيديه لآخر بيت رآه يغيب وهو في صندوق السيارة مع رفاقه ، فاحس انقباضا محزنا ، ثم فجأة رأى نفسه وحيدا مسلوخا عن موطن طفولته

فيما بعد ، بعد زمن طويل ، تذكر علي الراعي انهم مروا بمدن توقفوا فيها قليلا ثم تابعوا ، ولما وصلوا في اول المساء اطلت عليهم انوار كانت ترقص كالنجوم . واذ سال علي الراعي احد رفاقه عن هذه الكواكب الملااة قال له ساخرا هذه مصابيح كهرباء ياغشيم .

ويداهم علي الراعي بمدينة ضخمة كالجبال ، وبابنية حديثة ، وسيارات مسرعة لم ير مثلها في حياته . يفاجأ بانها لاتصدم بعضها بعضا ، كما يذكر انه كاد يصرخ وهو يرى نساء سيقانهن عارية .

كان يخجل من الاسئلة خوف الخطأ والسخرية فيتمتم لنفسه : لابد أن هذه بلاد القربة كما قالت امي !

عندما وصلوا المعسكر القائم في طرف المدينة ، بوغت بأن مارآه قد مضى ، كما مضت الصبوحية ، وأنه الآن في الحرب

كان المعسكر شبه معتم ، واذ وطئت قدماء الارض ، تذكر تراب الضيعة وداهمه حنين أولي خافت

انه محتلق الآن على سريره الحديدي في الظلمة التامة ، وهو

يحلّم بالضيعة والمدن النظيفة التي رأها الناس والسيارات
والأضواء الباهرة العالم الضخم المتحرك خارج قريته الضيقة
السكنة

وفجأة يهب على صوت البوق

استغرق خطاب قائد المعسكر ساعة ونصف الساعة عن حب
الوطن والتضحية بالدماء والانضباط الذي ركز عليه وكرره عشرات
المرات ، فأخبر الجنود بأنهم قادمون على معركة مصيرية وان
عليهم أن يكونوا في مستوى من التدريب واللياقة واطاعة الأوامر
بغضيت اذا بدأ الهجوم الكبير يرفعون رأس الوطن عاليا ويحققون
له النصر المؤزر ثم ختم خطابه بأية مشجعة :

« وان ينصركم الله فلا غالب لكم »

★ ★ ★

اثبت علي الراعي خلال الفترة الأولى من التدريب كفاءة
مدهشة ، حدث بمدربه لأن يطلب له اجازة يمضيها في المدينة
هاهو فيها مسحورا بالأضواء والحركة والأصوات شوارع
نظيفة وابنية شاهقة وسيارات ثم هؤلاء النسوة البيضاء
كالجليب

— دي علي الراعي . ما هذا ؟

ويضحك في سره وهو يتذكر فطوم وزينب وعليها الوسخات
الشريرات

قال له رفيقه دعنا نذهب الى السينما !

وبعد شرح عققد من صديقه فهم أن السينما صور جميلة ممتعة
تركض فقال بسذاجة : ولكن اليس مانراه هنا سينما ؟

كان مبهورا والصور تمر على شاشة عينيه فلا يكاد يستقر

بنظراته على الأشياء وأذ يرى نموذجاً لامرأة واقفة داخل زجاج
مخزن يحدق فيه دهشاً ثم لا يلبث أن يهنس لصديقه الاتعاب
من هذه الوقفة ؟

فيحققه صديقه وهو يسحبه من زنده ، ويمضيان
في نهاية الدورة فاز علي الراعي بالدرجة الاولى ، فمنح رتبة
مريف فخري ولعطي جماعة ليدربها من اجل الهجوم
يقسوة خالية من أية شفقة درب جنوده لم يكن يحب الكلام
وكانت كلمته الماثورة العسكرية موت وليست لعباً ترن في
آذانهم وقليل ما كان يتسم

ومذ اوكلت اليه المسؤولية الاولى والثقة ، بدأ يعمل بدأب
وقدوة ومثالية حتى انقطع عن النزول الى المدينة ، وحرّم نفسه
من أية اجازة لقد اصبغت الشكّة بيته ووطنه وعاله لكن
الجنود كانوا يمقتونه لصلابته وخشونته فاطلقوا عليه لقب :
الوحش

وفيما بعد ادركوا انهم كانوا على خطأ فقد سهر علي الراعي
معهم يوماً ورووا ذكريات شخصية قديمة وضحكوا وشربوا الشاي
معاً

وليلتها غنى لهم علي الراعي بصوت جارج حزين عتاباً وميخناً
وسكاباً حتى ساعة متأخرة من الليل ، واثّر ذلك صار اثراً لقلوبهم
وتمنوا أن يقودهم في الهجوم

★ ★ ★

قال قائد السرية ذات مساء لعلي الراعي علي انت ذكي
وصبور لماذا لا تكمل دراستك ؟

فاجاب دهشاً دراسة ماذا سيدي ؟

سيد تدرس في الكتب وتنال شهادة

— ولماذا الشهادة سيدي ؟

— الشهادة تدخلك الكلية العسكرية فتخرج ضابطا

وحقق في وجه القائد مليا ثم عد على أصابعه سنوات الدراسة وسنوات الكلية الحربية وسنوات التدريب وقال للقائد وهو يهز رأسه ويسيدي. كل ذلك الوقت سيمر حتى أحصل على رتبة ضابط ؟ لا ياسيدي لا يكون الهجوم الكبير قد صار وأنا ما أزال في المؤخرة

وقال القائد انك تفكر كثيرا في الهجوم

فقال علي الراعي طبعا سيدي لماذا نتدرب اذن ؟ عندما يبدأ الهجوم الكبير سأقطع رؤوس الاعداء ورأس كل جندي قعدو ، بنجمة وهذا افضل من الدرس

ولاول مرة يتسم علي الراعي ببساطة فلاح طيب شجاع أردف الضابط وهو يتسم للسذاجة الريفية : وهكذا تترفع الى رتبة ضابط ؟

قال علي نعم وبجدارة

— واذا ما تأخر الهجوم ؟

أكمّد علي الراعي ، وأطرق نحو الارض ولم ينبس هومت الضيعة في ربي نفسه فتساءل بصمت ولماذا تركت قريتك اذن يا علي الراعي ؟

كان الضابط قد غادر الآن وهو يختال برتبته العسكرية اللامعة

- ٢ -

استمر التدريب ، واستمرت الايام بطيئة رتيبة ، وقسوة علي

الوحش وخشونته على جماعته لاتتغير المسكينة موت فمهم
أم لا ؟

وذات ظهيرة سألته أحدهم متى يبدأ الهجوم حضرة العريف ؟
فبعد حاجبيه غضبا وزار في وجهه نبلغكم الامر في حينه
ولم يكن راضيا عن الجواب وردد السؤال في سره فشعر
بضيق وغيظ مبهمين

خلال الاستراحة ، كان يجلس على صخرة في القيط ويشرد
الصوحية بعد عامين طيف من الذكرى ، بعيدة عنه كالنجوم .
وطن الشقاء والملل والحياة الرتيبة ، هي ذي الآن تعشب في
الذاكرة يرميه الحنين الشفاف فيها زيتب وفطوم وعليا بنات
الحرام يلطين ليلا في الازقة واذا يمر يصرخن علوش الاصلع
علوش التعتاع ويهربن كم حرق الارم وهو يشب وراءهن عله
يمسك بواحدة ليربها رجولته في الخرابة المهجورة
- أخ لو انهن عندي في الجماعة -

جميع صحابه في القرية كانوا عاشقين لكل صبيته التي
يلتقي بها على البيادر تحت ضوء القمر أو يتسلل الى خيمتها
الصيفية يتحدثان ويتعانقان حتى الفجر

اما علي الراعي الفقير فكان كحجارة الاودية

وهو يشب عن الصخرة صاح بالجماعة اجتماع ع

خلال ثوان بدأ التدريب اعيدت التمارين والحركات بعنف
لم يشهده سابقا ، وعوقب افراد الجماعة بالزحف والمدا
السريع وتسليق الاشجار ، وعبور احدى المخاضات الملوثة ،
ومن ثم التمرغ فوق التراب الجاف
- إلى المهاجع رملا !

أحسن بنشوة وغفران بعيدي الحدود وهو يراهم يهرعون

بشبابهم المبتلة المفبرة وهمس لنفسه أنت فعلا مدرب عظيم
يا علي الراعي هكذا يفهم الخنازير ان العسكرية ليست لعبا !



يوما بعد يوم بدأت رتابة الزمن تضجر علي الراعي ، أحس بها
تتمائل وايام القرية ، كما وضع له الآن تأخر الهجوم ، وازدادت
الحاحات وتدمرات الجنود الظاهرة والخفية فقرر أن يسأل القائد
عن الامر

راقبه يوما في الساحة جالسا في ظل خيمته يحتسي الشاي
ويُدخن تقدم منه وحياء تحية انضباطية اهتز لها بدنه ثم جمدا
كوتد دق في صخر

رفع القائد بصره بصلف واعجاب ايوه علي ؟

وارتبك علي الراعي تحت حدقتي الضابط ، وراح يتأنيء
كلمات مشتبكة

علي مالك أين شجاعتك ؟

قال القائد بحزم

استرد علي شجاعته ثم رفع رأسه عاليا سيدي متى يبدأ
الهجوم ؟

قذف سؤاله بفضب وجدية كمن يعطي او يتلقى امرا عسكريا
هاما ، او كمن يقذف قبلة الى ابعد مدى ، فشرع بالغبطة

وضحك الضابط حتى اهتزت كأس الشاي وكادت تسقط
من يده

- علي ما اسم قريرتك ؟

- الصبوحية سيدي .
- منذ متى لم تذهب اجازة ؟
- منذ عامين تقريبا سيدي
- ألم تشتق لاهلك ؟
- كلا سيدي
- لماذا سألت سؤالك ؟
- الجماعة سألتني عن ذلك سيدي

واذ ادرك القائد جدية الموضوع رفع صوته وتجهم : طيب قل لهم ان هذا من اختصاص القيادة اهتموا بشؤون التدريب ولا تتدخلوا في الامور الكبرى انصرف الآن

عندما استدار بعد أن حيا بطريقة أقل قوة ، دهشته غمة فتمتم لنفسه أنت يا علي الراعي لست من القيادة اذن كان كسيفا وهو يترنح فوق أرض المعسكر ينكت الارض برأس حذائه ويفكر

في تلك الليلة لم يستطع ان ينفو بين اليقظة والنوم تراءى له رجل ملتح طويل القامة يرتدي ثيابا سوداء وقف فوقه كالشبح: « أنت شجاع يا علي الراعي لم تهب شيئا في حياتك ولن تخسر شيئا لانك لا تملك شيئا سلاحك معك والحدود قريبة علي الراعي من قديم الزمان وأنت تهفو للحرب وهذه أرضك يزرعونها ويقيمون عليها البيوت والثكنات ويستقرون .

أخذت بالهجوم والدفاع لا يعيدها هاجمهم يا علي الراعي يهربوا نفص عليهم حياتهم يهاجروا هيا يا علي هيا ابدأ حربك ، اضربهم في فرحهم في طمأنينتهم في مخادعهم لن تخسر شيئا لانك لا تملك شيئا أدر ظهرك للكلمات والضوضاء ولا تستمع

الى طنين الجبناء واختفى الرجل الملتحي

- ٣ -

عندما استيقظ بُهِتَ من شيء واحد كيف عرف ذلك الرجل اسمه ؟

بعد أن عَادَ مع جماعته من درس الرياضة الصباحي ، جلس أمام خيمته وراح يحرق في السهول والجبال البعيدة نضرة مهيبة جريئة تحت البصر ، يقطنها الغزاة منذ عشرات السنوات . على نحو مشوش في ذهنه المحدود ، اختلطت أمور ما كان يفكر فيها في الماضي ، هاهي تجبو الآن على شاشة عقله كالاطياف فتسبب له الكثير من الغم والضيق

انت يا علي الراعي جندي بسيط لست ببال أحد جندي يتلقى الاوامر وينفذها منذ عامين وانت وجماعتك تنتظرون الهجوم وها هي تمارين التدريب تتكرر آلاف المرات عبر آلاف الايام والهجوم لما يأت والهجوم يحثم في رأس القيادة ربما في المنطقة المنسية من الرأس، وانت لست من القيادة والجندي البسيط يستيقظ بأمر وينام بأمر ويتدرب بأمر ويأكل بأمر ، ينزل المدينة بأمر ويفادها بأمر ويتزوج بأمر ، وربما كان عليه أن يفكر بينه وبين نفسه بأمر أيضا

وفي لحظة أدرك علي الراعي ان عمره مربوط بسلسلة ذات فروع بلا نهاية ، وان هذه السلسلة تحركها يد خفية ، وهذه اليد تطيل له أو تقصر متى عن لها ذلك ، كما أدرك أن بينه وبين قائده هوة سحيقة لاسبيل الى ردمها وان هذه الهوة ربما كانت تمتد الى بدء الخليقة لقد أحس بالذعر الحقيقي لأول مرة وهو يكشف انه بلا حرية



في الليلة التالية حضر الرجل الاسود . رأى في وجهه عبوسا

وغيضا حمله من فراشه وطار به في فضاء تحته غابات وأنهار
وفي الفضاء رأى أمه كان وجهها مقطوعا عن جسدها وكان مشوها
محفورا بالجراح وشخوب الدم ، وحاول التوقف ليحدثها لكن
الرجل الملتحي سحبه بعيدا عنها ، وسمع انينا فاجعا خلفه ثم
رأى سحابة مقبلة نحوه وقد علقت بها طيور مصنوعة من الدم
والعلق ، وتسلفت الطيور لحمة وفجأة رأى نفسه هاريا تماما
فأحس بالعار وحاول أن يختبئ داخل الغمامة لكن الطيور لاحقته
وراحت تمتص دمه ، وتلاشى صوت أمه وحاول أن يصرخ فلم
يسمع صوته ، وامتدت يده لترد طيور الدم والعلق فاذا بها
مشلولة عصية على الحركة ، وشاهد تحته على الأرض معارك
وغبارا ونساء وأطفالا عرايا يساقون بالسلاسل ويظمنون ، وكان
الرجل الاسود قد تركه يسبح وحيدا في الفراغ وابتعد عنه
كان يراه وهو يطير باتجاه الغابات واعترضه القائد فنهره بغضب
كي يعود لكنه نجاه عن طريقه وقال له أنت جبان ياسيدي
الا ترى طيور الدم تأكلنا وكانت الطيور تحلق فوق القائد
ورآها تنقض عليه حاملة قطعة من لحم وجهه ثم شاهدها وهي
تسمل عينيه وتتقاذفهما بمناقيرها الضخمة والقائد يصرخ ويدور
في الفضاء أعمى سابحا في بحيرات الدم التي تشكلت

وسأله سيدي الا نبدا الهجوم ؟

فأجاب القائد المصاب لم تصل الاوامر بعد !

- ٤ -

ما عاد علي الراعي يسأل عن الهجوم العام لقد نفذ صبره
أخيرا فكسر أول حلقة من حلقات السلسلة الفولاذية مجتازا
الحدود المحرمة ، بادئا هجومه الخاص

في ساعات الراحة كان يرصد بدقة مواقع اولئك الذين

خدعوا توراتيا بأن تلك الارض لهم ، فجاؤوا من كل بقاع المعمورة
ليعيدوا مآسي الحروب الصليبية وليدفنوا فيها

وكان الرصد النهاري توطئة لهجوم ليلي سيقوم به وحده
متخطيا طقوس الاوامر القيادية

بعد منتصف الليل في الساعات الاولى من الفجر ، كانت
غاراته تبدأ ، وكان سلاحه الاصمت فعالية ، سكيناً طويلة حادة ،
ونادراً ما يستعمل رشاشه ذا الاخمص القابل للطّي . وعندما
يعود قبيل الفجر كان يتجه نحو مفارة في السبع المجاور للمعسكر
يخلي فيها غنائمه الحربية .

ورغم المشقات الليلية لم يتوان عن التدريب ، بل ازدادت
خبرته فكان يعلم جماعته المراقبة الفعالة والتنقل والتمركز
والكمين والاغارة والانقضاض والخنق والطعن وسحب القتلى
والاسرى والاسلحة ، منفذا الحركات والتمارين كأنه في أرض
المركة بين دهشة الجنود واعجاب قادته . وفي أحاديثه لجماعته
لم يعد يقتصر على كلمة العسكرية موت . انما اضاف اليها كلمات
أخرى ذات مغزى الإنسان الجريء يستطيع أن يفعل أشياء
كثيرة . الوطن ليس كلمات وحماسة . الوطن تضحية ودم
الوطن هجوم . حاربونا بالعصابات لنحاربهم بالعصابات . كل
واحد منا يقتل جندياً غازياً نفيهم . القاتل جزاؤه القتل في شرعنا .

بانتباه وفخر كانوا ينصتون اليه ، وما عادوا يهزؤون من
فأفاته وهو يحكي . وهجر علي الراعي العزلة ، والاقترب من
الضباط المعزولين عن الجنود والذين بنوا لانفسهم مجتمعا خاصا
في الثكنة والمدينة ، بعيدا عن عالم الجنود وعالم المركة

كانت الصبوحية قد انطوت تقريبا من ذاكرته ، فأحس بتحول
جديد في نفسه ، فهو يستطيع أن يتحرك ويفكر بأوامر تصدر منه،

غير ان ما كان يكمنه ان زمان المعركة سيطول وستصعبه الام
كثيرة واحزان وكان يعذبه كتمان سره عن رفاقه وخشي ان
يسالوه مرة اخرى عن بدء الهجوم

وذات غروب طلبه القائد وسأله ان يذهب في اجازة فرفض.
فقال القائد : ولكن انت لم تذهب اجازة منذ قدومك الى هنا
الا تحب قريتك وأهلك يا علي ؟

فاجاب بعفوية كل القرى قرיתי وكل الجنود اهلي
وسر الضابط ودهش لكن الانسان يحن الى كوخ تربى فيه
فاجاب فجأة : اكواخنا مسببة ياسيدي
تنبه الضابط موخزا أين قرأت ذلك ؟
فقال وهو يشير نحو الارض المغتصبة هناك ياسيدي.
ودع الضابط الانيق بتحية فاترة ثم مضى الى خيمته



تصاعدت عمليات علي الوحش فأفزعت العدو ، وتحدث في
اذاعته عن دوريات مسلحة تهاجم مخافره ونقاط استناده
ومدنييه تقتل وتخطف وتخرّب ، وهدد بفارات انتقامية ردا على
هذه الاعمال التخريبية ، ودهشت القيادة لهذه الانباء واعتبرتها
حجبا كاذبة للقيام باعتداءات جديدة

في باحة المعسكر جمعت العناصر وتحدث القائد عن تخرصات
العدو وتحدياته « علينا ان نكون حذرين والا ننزج في معارك
خاسرة انتم تعلمون ان أحدا من عناصرنا لم يعجز الحدود
الاوامر واضحة فالمعركة لم تبدأ بعد ، والقيادة في طور التحضير
للهجوم ومتى انتهى سنقوم بهجومنا الكاسح وعندها لن نبالي
بتهديدات عدونا اننا نندّر أي جندي يفكر بمغامرة اجتياز
الحدود هذا يعني التورط في معركة غير متكافئة ويعني

الهزيمة كانوا يقظين أيها الرجال ويوم النصر قريب باذن الله .

كان هناك في الرتل الاخير امام جماعته ، وكان يسمع التحذير وكلمات الحماسة وهي تتدافع من فم القائد وتذكر وجهه المدمى المرتعد في الحلم والطيور الدموية تنقض عليه وتفقأ عينيه وهو يحاول صد الطيور هاهو وسط الجنود يكش ذبابات تحوم حول وجهه وقد ارتسم الغضب عليه بدिला من الدعر

وفجأة داهم علي الراعي شعور مرير بالتوحد ، وبأنه ربما كان مخطئاً في عمله

- ٥ -

أعطى نفسه استراحة لمدة اسبوع ، لم يقم خلالها بأية عملية. كان السر يضغط على جدران رأسه ، ولم يكن قد ناقش لماذا اقدم على التجربة والى متى يستطيع أن يستمر ، وهل يمكن أن يبقى وحيداً يقاتل خفية في معسكر لا يفعل الا التدريب والاكل والنوم والانصياع للأوامر ، ثم ينتظر وفكر بأفشاء السر لبعض عناصر جماعته الذين وثقوا به كما يبدو

عصر يوم عطلة انفرادي كان يختبره خلال أيام التدريب، وهمس له لا تنزل الى المدينة لدي ما أقوله لك

وغب المساء اتجهوا نحو السفح بحذر شديد

عقلت الدهشة لسان الجندي وهو يرى ما في الكهف ، وبعد أن انتهى علي من اغلاقه بصخرة محكمة روى له السر

قال له وهما يجلسان قرب الكهف لن تفشيهِ طبعاً والا

وقارب كفه من رقبته بحركة خاطفة تشير الى الذبح

وقال الجندي بلجاجة ولكن هذا عمل خطير

فقال العريف الفخري بثقة خطير أو غير خطير . لقد حدث

وليكن ما يكون هل تشترك معي ؟

وتسأل الجندي والقيادة ؟

قال علي الراعي القيادة تنتظر اوامر القيادة الاعلى والقيادة الاعلى تنتظر الاعلى منها وهكذا

واستطرد كم مضى عليك في هذا المعسكر ؟

- عامان تقريبا !

وقال علي ومن كان قبلك وسلفه وسلف السلف ؟ عطب البارود ، والحراب صدمت من الانتظار والجنود نسوا الحرب ما عادوا يفكرون بغير الاطعمة والرواتب والاجازات والزواج والنزول الى المدن الجميلة الى متى ؟ أنا كنت مثلك نحن مخدوعون

وسأله الجندي ولكن أنتقد ان هجومهم لن يبدأ ؟

قال علي بوثوق ذاتي اكثر سيان المهم ان نبدا نحن هجومنا

- ولكن أليس هذا مخالفة غير انضباطية ؟

فابتسم علي الراعي وربت على كتف الجندي لاتفكر كثيرا فيما يقولون ويأمرون ان هي الا حكاية قديمة مسلية تشبه حكايا الجدات الخرافية للاطفال في الليالي كي يناموا ولقد اعتادوا روايتها علينا منذ عشرين عاما صمّت آذاننا ونحن نسمعها

ان أحدا ما لا يأخذ على مسؤوليته امر الهجوم الكبير صدقني هذه هي الحقيقة الساطعة

كان المساء قد زحف الآن وغطى المرتفعات والسهول ، وأمامهما كانت ترى أضواء خافتة وحركة آليات عدوة لم تكن تتحرك في النهار

نهضا عن الصخرة وانحدرا صامتين نحو المعسكر

بعد منتصف الليلة الثانية تسلل علي من فراشه كمادته واتجه نحو مهجع الجنود ، لكز الجندي النائم فهب من فراشه ورأى الجندي وهو يفتح عينيه ، شبح رجل يقف فوقه . وضع العريف كفه فوق فمه وهمس له : أنا علي هيا . بسرعة .

كانت ليلة باردة وكان علي يحمل كيسا وساله الجندي عنه فأجابه دع الاسئلة وتعلم منذ الآن كيف تفتح عينيك جيدا واذنيك وان تصمت

وقبل أن يجتازا الحدود أعطاه تفاصيل المهمة ، ثم ناوله من الكيس ثيابا عدوة وارتديا الالبسة وتأكد علي من سكين ورشاش وذخيرة الجندي ثم وضع يده على صدره كان قلب الجندي يخفق بتسارع واضح فهمس له ضع خوفك تحت حجر ههنا وعندما تعود خذه أنا أعرف تلك الارض معرفتي بساحة التدريب

واجتازا

خلف شجرة في حديقة كمن الجندي وراح يراقب في الظلمة بينما تقدم علي داخل المعسكر

لم يكن خوف الجندي قد هدا تماما ، لكنه كان مطمئنا لوجود علي : اي انسان هذا الرجل الذي يدخل مراكز الأعداء ولا يرتعش هل من المعقول انه لا يخاف ؟ الاسد يخاف ناهيك عن الانسان ابي كان يقول الانسان لا يخاف الا انسانا مثله واذا ما عرفوه ؟ والله هذا المقاتل اقوى من الموت اليس حراما أن يموت الرجال الشجعان لو أطلقت النار عليه هل أتركه وحده ؟ معي خمسة مخازن وتلمسها ثم عدها ولامس برؤوس أصابعه قبضة السكين فأحس امانا محدودا

كانت الارض طرية والشجرة فوقه تبدو من فتحاتها الفيوم ، وجواره كانت الظلمة وكان وحيدا ينصت لصمته المصدي ولاية نائمة ولخوفه . كانا وحيدين فوق أرض يطوها آلاف الاعداء . وخيل اليه أنه سمع حشرة خاطفة فتوثب ملامسا انحناء الزناد وجدق اكثر كانت قدماه تصطكان الآن ونبضه يتسارع بينما جبينه يلتهب

وعاد علي حاملا الكيس فوق ظهره واذا اقترب اعطى كلمة السر ، وعبرا في العودة طريقا اخرى وتناوب الجندي حمل الكيس في منتصف الطريق فأحس ثقله وكروية مابداخله يتأرجح على عموده الفقري خلال العودة كانا كقريبين ولا كلمة حتى اجتازا خط الحدود قال علي مازحا بإمكانك ان ترفع الحجر وتتناول خوفك الآن واخذ منه الكيس متجها نحو الكهف . ثم قال اسبقني الى المعسكر .

وصاروا ثلاثة ثم أربعة وخشي علي أن ينكشف الامر اذا ما ازدادت العناصر كما توقع صدامات وخسائر مع العدو ، فأوقف الانتساب السري على خمسة من الجماعة ، دربهم واحدا تلو الآخر على الدخول واشركهم في عمليات خاصة قاسية ودامية حتى تصلبت نفوسهم وتحدت الخوف والرحمة وأعلمهم بأنهم أصبحوا الآن رفاق الموت .

باستمرار كان احد الافراد يسهر ويتجول في باحة المعسكر وعلى تخومه يراقب منتظرا ردود فعل العدو وحتى ذلك الوقت بدا أن كل شيء كان يتم بهدوء في الداخل ، وكان التدريب مستمرا لكنه ازداد قساوة وتنوعا في جماعة علي ، بينما ظل علي وتيرته في حياة جميع افراد المعسكر الآخرين

كان الرفاق الستة متميزين في القدرة العضوية ، وقد بدا ذلك واضحا خلال تدريب السرية بكاملها في الرياضة والعبور

والتسلق وتمارين القتال والمسيرات الليلية ، وكانت نفوسهم صافية كالفضاء لا شكوى ، لا تدمر ، قبول ما يطلب منهم بروح عالية ، وتنفيذه ، ولم يفكروا منذ بدأت عملياتهم السرية بأية أجازات أو نزول الى المدينة

شيء واحد كان يـُورق نفوسهم لو انكشفوا !

وخلال الستة كانت المدينة تستهوي الجميع كانت المدينة محطة راحة وطمأنينة وشهوات لا تنقضي ، ولم يكن فيها حرب وفي أيام العطل كانوا يخرجون الى البراري والهضاب المشرفة يتحدثون عن أعمالهم ومستقبلهم وعن الاحتمالات ، وكان علي الراعي يقول صدقوني أنا لأخاف العدو أكثر من الصديق . يبدو انهم قد تخدروا هنا أو أصابهم الشلل أو دخلوا إحدى حلقات الذكر يتحدثون كثيراً وقليلاً ما يفعلون بحرارة يحكون عن الماضي وتجارب الناس ثم يختمون ذلك بحماس انتظار أوامر القيادة ويسأله أحد رفاقه الى متى سنستمر في أعمالنا السرية ؟

فيجب علي الى أن تقوى أكثر أو يحدث الهجوم الكبير

— لكنك قلت أن ذلك لن يحدث

— سيبدؤه العدو يوماً

وكانت الصبوحية بعيدة جداً الآن ، كذلك قرى الرفاق، البرعاة الذين اتجهوا منذ سنوات باتجاه الحرب لاجتياز الحدود كانت الصبوحية آخر حلم يحلم علي الراعي بالعودة اليه ، لكنه كان فرحاً في أعماقه لانه كان أول من خرق الهدنة وعبر التخوم الوهمية لم يكن علي الراعي تذكرات هامة ، حتى ماضيه كان من التفاهة بحيث لا يدعو الى الحزن على شيء كانت حربيه التي بدأها بطريقته الخاصة ، والتي تخطى فيها الاوامر ، وقادها ،

هي ماضيه وحاضره ومستقبله ، وكان قد أدرك تماما بأنه وقع مع رفاقه وثيقة الموت بلا أسف

وكانت المدينة الآن ، قريبة جدا ومشعشة بالاضواء والخمر والنساء العذبات والسيارات والشقق المريحة ومكبرات الصوت والصخب المتواصل

كان اليوم يوم جمعة وجميع الضباط وكثير من الجنود يمرحون وينسون ويطاردون الشهوات التي لاتنقضي

وفجأة لمحو رفيقهم الحارس يمدو نحوهم فهبوا واثبين وجروا إليه كان يصيح العدو العدو العدو العدو يزحف نحونا وعدوا باتجاه المعسكر وصاح علي بمن في المعسكر بصوت متوحش العدو الى السلاح وكسر المستودع وراح يوزع على الجنود البنادق والذخيرة والقنابل اليدوية وأوعز الى أحد رفاقه أن يتجه بالجنود الى التلال المجاورة ويتمركزوا هناك

وخلال دقائق أتم عملية التوزيع والتحق برفاقه نشر الجنود مجموعات على رأس كل مجموعة وضع رفيقا واعطى تعليمات بقتال العدو حتى الموت وهدد من يهزم بالرمي والقتل وجاء تمركره على نحو لاشعوري قريبا من الكهف مع مجموعته

وبدأت المعركة

- ٦ -

لم يصدق علي الراعي ماتراه عيناه في البدء غير أن الوجوه المنقبضة وعلامات الحزم والصرامة وهذه الكلمات الحاسمة ذات الايقاع التاريخي الجاد ، والحرس ذوو القبعات الحمراء يحيطون به جميع هذه الطقوس المنبئة رمت في قلبه الذي لم يهب يوما نوعا من الفرع الحقيقي وغمرته موجة حزن عميقة القرار وهو يرى نفسه مطوقا متهما بتخطي وخرق أوامر القيادة

- ٤٤ -

لقد وقع اذن وهو جريح وشعر بأنه وحيد الآن يواجه
اناسا آخرين عيونهم مصوبة اليه وهو اعزل لايعرف الا القليل
من كلمات اللغة وكان السؤال الاول : منذ متى بدأت تجتاز
الحدود

ولانه لا يذكر التاريخ تماما اجاب لادري

وسئل لماذا خرقت الحدود ؟

وقال بسذاجة لان العدو كان هناك

واجاب على سؤال هل تعترف بانك تخطيت اوامر القيادة ؟
بنعم

وعلى سؤال وهل كان سلوكك تمردا ؟
بلا

وسأله هل اردت أن تكون بطلا ؟
فنفى ذلك

— لماذا قمت بتنظيم سري اذن ؟

وجم ثم نظر نحو الارض تذكر رفاقه وليالي التسلل
الى المستعمرات والمركة الاخيرة التي دحر فيها العدو ، وشعر
بجرحه ينقز « أين هم الآن » ؟

وأعيد السؤال فلم يشعر بضرورة الاجابة عليه فظل صامتا

كان الحزن يغور الآن في نفسه ، فيشعر بالعزلة وكأنه منفي
في صحراء بعيدا عن رفاقه ، عن أمه ، عن الصبوحية التي علمته
براريها وقسوتها وسمائها كيف يكون جريئا صافيا كينابيع
الأودية .

وهمس لنفسه « ما اكبر خديعتك يا علي الراعي ! »

وسئل هل استخدمتم ذخيرة أكثر من المخصصة لكل جندي ؟

فقال : نعم

— ومن أين حصلتم على هذه الذخيرة ؟

فقال من مستودع الذخيرة

وسئل اشرح لنا كيف كنت تسطو على المستودع

وسأل مستغربا عن معنى كلمة تسطو فأجيب اي

تسرق ودهش من سماع هذه الكلمة فنفي أن يكون سارقا

وقال أُمي تشهد بأنني لم أسرق بيضة في حياتي واجتاح

القاعة موجة من الضحك

تجهم الرئيس ونقر سكو...ت

وبدأت الاسئلة من جديد عن المعركة الاخيرة وكسر المستودع

وقيادة الجنود لماذا لم تبلغ الضابط المناوب عن انعدي ليتصرف

هو باعتباره أقدم منك واقدر على القيادة ؟

وود أن يعترض على كلمة أقدر لكنه قال نسيت ذلك في

غمرة الاسراع لمواجهة العدو

— هل تعلم بأنك تسببت بجرح جنديين انت احدهما

وفقد آخر

وجمد نظراته في السائل لمدة ثوان معدودة كتم صرخة

ولم يجب

في اليوم الثاني وفي اجتماع الظهيرة تلي أمر اداري على

جنود السرية الرابعة يتهم علي بن سويلم الراعي من قرية

الصبوحية احدى قرى الوطن العربي المحتل بالتهمة التالية

١ — خرق أوامر القيادة العليا للجيش والقوات المسلحة

والمغامرة بتخطي الحدود للقيام بعمليات نهب وسطو أدت إلى قيام العدو بهجوم على أحد معسكراتنا

٢ - تشكيل تنظيم بري في المعسكر رقم (١) والتحريض على العصيان ودخول مستعمرات العدو بالقصد ذاته المبين في المادة رقم (١)

٣ - التصرف بذخيرة المعسكر سرا لصالح الجماعة التي شكلها المتهم بدون علم القيادة

٤ - تخطي من هو أعلى منه رتبة وكسر مستودع الذخيرة والتصدي بعدد ضئيل من الجنود لسريتين من جنود العدو مما سبب جرح جنديين وفقدان آخر تعتقد القيادة أن العدو أسره والجندي المفقود يحمل أسراراً عسكرية في غاية الخطورة قد يضطر إلى إفشائها تحت الضغط والتعذيب

ان القيادة بناء على ماورد في التهم المبينة أدناه ، وحرصاً منها على سلامة الوطن وجنوده ، وحتى لا تتكرر مثل هذه المحاولات الفردية المغامرة ، التي قد تورط الجيش والشعب في معركة لم يتم الاستعداد لخوضها ، وتثبيتاً للقيم الانضباطية ، وحتى تحفظ هيبة القيادة وتنفذ أوامرها بحزم وشدة

حكمت على العريف علي بن سويلم الراعي

١ - بالتجريد من رتبته العسكرية

٢ - بطرده من القوات المسلحة

٣ - بزرجه في معسكرات الاعمال الشاقة لمدة

لم يسمع الجنود مدة الحكم كانت أبصارهم معلقة على مدخل المعسكر وقد بدؤوا يهمهمون بأصوات مرتفعة

كان الجندي المفقود يتقدم بثاقل جارا وراءه مدفعاً ثقيلاً

وعلى كتفيه عدد من الرشاشات والبنادق كان يقترب من
الساحة وأبصار الجميع معلقة عليه والدهشة تتخطف الجميع.
بدا منهاكا وثيابه مبللة بالعرق وهو يلهث محني الظهر تحت
حملة

نسي الجنود المجتمعون الأمر الإداري فوثبوا نحوه ليساعدوه
وبهت الضابط فتراخت يده التي تحمل الأمر وهوت على جنبه
واذ وصل الجندي الساحة هوى أعياء على الأرض
تقدم الضابط منه ورفع قليلا فسقط الأمر فوق الفبار
وراح يمسح عرقه وطلب له ماء فسقوه وسأله الضابط بذهول
من أين جئت بهذه الأسلحة ؟
فتمتم من مغارة علي الراعي
- هل بقي هناك أسلحة ؟
فأجاب بخفوت تعب أجل ورؤوس أيضا

القتيل

منذ زمن طويل وأنا أفكر بهذه القصة لم تكن جميع النوافذ مغلقة غير أن عشرات الكوى التي تتسرب منها الأشعة باتجاه ذلك العالم العضوي والنفسي ، كانت تربكني وتضعني أمام اختبار رديء وموحش في الوقت نفسه

أعترف مبدئياً أنها عملية ارتياد صعبة ، لكنها مشوقة وخطرة هل جرب أحدنا يوماً امساك الذرات السابحة فسي مسار ضوء شمس يخترق نافذة غرفة رطبة في الشتاء ؟

في طفولتي اذكر انني جربت ما هو اكثر استحالة أن أعدو بلهفة غريبة لأعبر تحت قوس قزح غب يوم شتائي سطعت شمسهُ

كانت جدتي تقول من يمسك قوس قزح ينج من الموت
بيقين مطلق كانت تقول ذلك ، وباليقين نفسه كانت تدرك أن أحدا
لن ينجو

منذ زمن ليس باستطاعتي تحديده عرفت هذا الرجل
الغريب كانت معرفتي به تشبه مسار السدرات عبر ممر
الشمس ، أو رؤية ألوان قوس قزح الرائعة يسكنني ويخرج
مني متى شاء ، يعترضني في أي مكان ، ويحدثني بغرابة عن
جميع الأشياء ، لكنه كقوس قزح ظل عصيا على اللمس

بدرجة مختلفة أحبته وحزنت عليه أبان تعارفنا في الأزمنة
الأولى كان فتيا شرسا مغامرا في آن ، وفي آن كان يبدو
هادئا مستسلما كامراة اذ لها الاغتصاب وفي الآنين لم اكرهه .

الآن اذ أرنو اليه اكاد أصعق ضيق وخوف يطوقاني
سحنة غريبة عديمة اللون حدة كريهة تتقيب فوق ظهره
عينان احتلها العار طاردا منهما الومض القديم ثم هذا الوجه
المشوه وقد ناح فيه العذاب وكل الذل

والآن الآن فقط اكاد أمقته مالا الذي دهاه ؟

من قديم ، قديم ، هبط هذا المخلوق من عالم بعيد قالوا
انه أتى من الغابات ، وآخرون قالوا أنه هاجر من الصحراء
وقسم ضئيل من سكان هذه المدينة تكهنوا بأنه اختمر من
الأرض ، ثم بفعل العواصف والأمطار والرعود صار الى هذه
الهيئة شبه البشرية

لم يكن يعرف ميلاده أحد ذات يوم فوجئوا به وفيما
بعد اعتادوه ، ثم مع الزمن صار كالمنطق والرياح والشمس ، ونسوه .
جميع الناس عرفوه . كمد البحر وجزره ، بل كان البحر في
غضبه وصمته .

تعايشنا زمنا قبل ان يصير الى مأهو عليه الآن عاش معي في
اليقظة والحلم ، في الطفولة واليفاع ، وعلمني اشياء كثيرة
مازال اذكر تلك الليلة التي جاءني فيها وكنت قد قررت ان اعتزل
الناس واعتكف في غرفتي لأن الناس جميعهم اشرار وأنا ليسون
والانسان في هذا العالم يولد وينمو ويموت وحيدا كشجرة في
صحراء ، وأن الحياة مهما بدت حسية وحادة في الصفحة
أولى في الصفحة الثانية تبدو مجرد وهم أو حلم

يومها وأنا اعبر تلك المرحلة المختلة اليائسة ، حضر حدثه
عن حالتي وقلت بانني يأس من كل شيء في هذا العالم وانني ساظل
في هذا الجحر انام وأستيقظ ، آكل وأبول وأتفوّط ، أتأمل الجدران
واللاشيء وأمضغ الضجر حتى اموت يومها اتهمني بالمرض والعجز
عن المشاركة وانني انا الاناني ولوان جميع البشر فعلوا مثلي لاستحالت
الحياة ولصار الانسان كالحجارة وانقرض النوع البشري عن الارض ،
ثم اهاب بي أن أخرج من عزلتي وأرمي بهذه الافكار السوداء في
البحر

في كل لقاء بيننا كنت اخسر وكان ذلك يشبه موجا يندفع
نحو صخرة ، يحثها ضربة اثر ضربة حتى تتشكل كما يريد الموج
لاكمل تريد الصخرة

كان يطرح علي اسئلة محرجة ومخيفة حول الحب والموت والفرح
والشقاء والزمن والاحلام والخلاص ، وكانت اجوبتي تخاتل حول
اسئلته تحت ستار أن هذه الامور الصعبة يمكن ان تعاش اكثر مما
يفكر بها ، وان التأمل المضني حول مثل هذه المسائل يحيل الحياة
الى جحيم يمتص نضارة الانسان دون الوصول الى قناعة نهائية ،
وأنا انسان بسيط كل ماأبتغيه في الحياة عيشا سهلا وعمراً تشرق
الشمس خلاله وتغيب دون أن تمر في طور الكسوف

بحزن كان يتملاني وانا احكي . حزن ممزوج بشفقة .

— آہ کم انت تعیس انا حزین من اجلکم جمیعا

واذ سألته لماذا هو حزين ، اكتسى حالة كانت مزيجا من الشعر والفلسفة ، وراح يتحدث عن الناس المرضى الذين يموتون برغبة داخلية تستبطنهم دون أن يدركوها خلال الزمن ينسجون موتهم كما تنسج دودة الحرير شرنقتها وسمى تلك الرغبة بالخوف الخوف المنبس في حليب الأم ، والجائهم بين الطفل وأبيه الخوف المثل من عيني معلم المدرسة ، والمتربص في خطوات الفتاة الماضية للقاء حبيبها الخوف الذي يغلب أمة كثيرة العدد في حرب مفاجئة ثم يضيف منذ الطفولة تبدأ الانقسامات داخل النفس خلايا تضمر لأنها لاتمارس وظيفتها وخلايا تنمو على حساب الاخرى على هذا النحو تنقسم الفرائز الى خلايا ضامرة وخلايا نامية ومع الزمن تكتسب ألوانها الخاصة ويسألني ان كنت لاحظت يوما الطيف الضوئي بحركة ذراته وامتزاج ألوانه وتداخلها ، فأجيب بالنفي فيشرح لي ان اللون الاساسي موجود لكنه منقسم الى عشرات الالوان الاخرى لكن هذه الاشعة الجديدة تنفي اللون الاساسي لاتنفيه تماما انما تدده لم يعد هو هل تفهم ؟

أهز رأس يميننا وشمالا. تفزوني حالة من صعوبة الإدراك.
هذا المخلوق يطلسمني أحسن ذرة مقدوفة في فراغ وهذا
المخلوق الضريب ربح يرفعني عاليا عاليا نحو سماوات سبع
طباق يريني العالم ضبابا وهيولى ينوس بي بين الفجر والليل
بين الشك واليقين يعطيني السر الذي يشبه شعرة الجحيم
والنار ويقول هو ذا صراطك أمشي لست في الفضاء ولا
على الأرض لا حالم أنا ولا يقظ أبدو كأنما على التخم الرفيع
بينهما وفحة بهوى بي فى منحدر الشمس نحو البحر

« الناس هنا ليسوا هم كانوا في زمن ما ، لكن الانقسام

حولهم . دخلوا شبكة الطيف الضوئي للخوف . الخلايا الاساسية هوت تحت الشبكة وضمرت وفي مدار الطيف نمت الخلايا الفرعية الحياة نفسها افرزتها ليستمر قانون الموت في الخوف . انا اتحدث اليك عن الجواهر عن تكوّن الذرات الاولى في الصحراء ، يوم كانت الدنيا غمرا ثم صرخ أول طفل تحت الريح والشمس ثم حبا ثم مشى ثم امتطى أول صهوة ثم طعن أول عدو ثم انتشى ثم اغتيل ثم سقط في الصحراء

منذ ذلك اليوم غزا الناس الاطمئنان ركنوا تحت مظلة خوف لا يدركون خطرهم كلكم تغفون تحت قشرة هلامية اسمها الزمن المنسي هل سأل أحدكم يوما نفسه عن الزمن الحي والزمن الميت وفي أي منهما يحيا هل أدركتم يوما معنى الجوع والعطش والسجن والارق والعري والقتل والخيانة قم وانظر من نافذتك انظر اليهم كيف يتسارعون في الشوارع خوفا من الخوف ، خوفا من الجوع والعطش والسجن والارق والعري والقتل والخيانة ، لكنهم بعد حين يقعون في الفخ لقد نسوا من هم ، لو فتشتهم جيدا لعثرت على هوياتهم المزورة ان أحدا منكم ليس ابنا شرعيا »

- ٢ -

ارتجت باب حجرتي جيدا وانحدرت في مدينة اللقطاء كل افكاري القديمة عن الحب والفرح والعفوية والبراءة والاخلاص ماتت هبطت كما قال ذلك النفل نحو الطبقة المظلمة من البحر .

أعوم في الشوارع بين الامواج البشرية الناس مسرعون لكن الخوف مرتسم في قسمااتهم حركاتهم مضطربة كأنما هم مطاردون احاول أن أسأل أحد المارة يرنو نحوي بازدياء ثم يخب خطاه ولا يجيب لا أحد يتحدث الى أحد الكل ماض عبر

تيار خوفه

« ما الذي دها الناس » ؟

فجأة أشعر بأنني خائف أحاول أن أمزج خوفاً بخوف
الناس لتعبرني حالة أمان، لكن الناس يمضون سراعاً وأنا متباطيء .
في الشارع ألقى الصديقة التي أحببتها بكل ما ملكت نفسي
أسألها ماذا جرى فتسألني عن العقد الأخضر الذي وعدتها به
فأقول لقد هوى من يدي خطأ في البحر تندهش وتقول
كيف سأرتدي فستانني الجديد بدونه ؟

أقول الست خائفة ؟ فتشرح لي بأنها ما ضية إلى غرفتي
وأنها قد اشتاقتني وأن علينا أن نسرع نحو البيت لننام معا
عاريين قبل أن نموت باقتضاب أفهمها بأن حكايتنا انتهت
وأنه ما عاد لنا زمن من أجل الحب وأن الحب لا يحيا في أزمنة
الخوف خذي كل ممتلكاتك ضعي فيها حبنا القديم واقدنيها
في البحر

تتهمني بأنني صرت لامبالياً وأنني أخطأت خطأ فادحاً برمي
العقد في البحر وأنني تحولت عنها تحت ثديها الأيسر أضع
كفتي فأحس وجيب قلبها أنت ترتعشين من الهلع يا عزيزتي
هل لك أن تعطيني هويتك لابدلها لك قبل أن تموتي ؟

ترنو نحوي باستغراب هل فقدت صوابك ؟

أقول : لا إنما أنت ستموتين قبل أن تصلي

وتمضي عني أرقبها خطواتها سريعة وخائفة تتلفت
نحوي مذعورة حزينة وعلى ناصية الشارع تموت

لست أدري إلى أين صار الخوف هاجسا وسفينة
وجوه الناس تقمصها الخوف وتحت الخوف بشائر موت مبهم
الآن أرى هذا الوباء كذرات كانت في حالة كمون تحت طبقات

منسية الذرات قدّفت بمحرض هيجها وبعرها فارتفعت
كفقات داخل زجاجة محكمة السد أكاد أحس بأن آلاف
الزجاجات موقوتة في العيون أرى التوقيت وداخل البيوت
المطمئنة خوف وتوقيت توقيت وخوف وتعود الدنيا غمرا
تعود الدنيا صحارى صحارى

تعروني فكرة تجتاح مفاصلي لو عدت الى بيتي واستلقيت
على الفراش فسأمت لو ولجت مقهى وجلست على كرسي
سأمت لو دخلت مطعما وأنا أكل سأمت لحظة الجنس هي
الآخرى هاجس موت أمضي الحركة قد تكبح الموت . اعبر
حديقة تنتصب فيها اراجيح اطفال الاطفال لايتأرجحون ، في
طرف الحديقة تجمهروا حول طفلة الطفلة عارية والاطفال حولها
في حالة هرج واقتتال بين فخذي الطفلة الحريرين دم يسيل وفي
أيدي الاطفال أمواس تلمع ببريق خاطف الطفلة تصرخ وعلى
وجهها المستلقي كل هلع العالم حولها يرقصون وقد أشرعوا
أمواسهم بعد حين ينقضون عليها ويبدأ الطعن أهرع خارجا
من الحديقة صرت خوفي كالقدر أراه بهيئته المحزنة المشوهة
أحاول ان أهرب من وجهه يسد عليّ المنافذ يقهقه حيثما
وليت وجهك ثمة أنا الهرب لا ينجي ملجأ أقول من
انت ؟ بسخرية يرد صديقك القديم ها ها ألم أقل لك
انكم تعيشون في الزمن المنسي

يذكرني بالخوف والموت في النفوس التي خيل اليها أنها
تنجو بالركض والهرب غافلة عن قانون الزمن والتحول ، ناسية
أن الموت يطالها ولو داخل أبراج مشيدة ثم يشير الى الناس
هؤلاء الاحياء موتى مؤجلون حكموا على أنفسهم بلعنة افقدتهم
الذاكرة

اسأله لماذا تغيرت ؟ فيقول هم الذين تغيروا هيا

معي الى ساحة المدينة

ونمضي .

في الطريق أسأله لماذا ماتت صديقتي فيقول بأنها فقدت
الامل الناس يموتون هنا لانهم بلا أمل حتى الاطفال فقدوا
آمالهم . مع الخوف الامل مفقود

— ولكن متى يعود الامل ؟

— مع عودة الذاكرة ، آنذاك يصير للموت معنى

— لكن الموت هو الموت

— في النتيجة أما الاسباب ؟ هل سألت نفسك لماذا
يقتل هؤلاء الناس ؟

ها نحن في ساحة المدينة حشد من الناس عراة
ومحجبون نساء ورجال . باعة وجنود في مركز الساحة
رجلان عاريان يتباريان بالسيوف الاسطحة مكتظة والنوافذ
أصوات ترتفع مشجعة جماعات تراهن على الذي سيفوز
رجل على الناصية يقرأ افتتاحية جريدة على الناصية المقابلة
شيخ معمم معه ربابة يغني وحوله جماعة

يا اهل يثرب لا مقام لكم بها

قتل الشهيد فادمعي مدرار

الجسم منه بكريلاء مضرّج

والرأس منه على القناة يندار

صبي مهلل الثياب يستجدي شيئاً يأكله شاب وفتاة

ينزويان في زاوية ويمارسان الحب

فلاح ينادي على دجاجاته فيضيع صوته في الزحام

في الجهة الجنوبية من الساحة تقف جماعة تهتف بشعارات سياسية ، تقابلها في الجهة الشمالية جماعة أخرى تهتف بشعارات مضادة بين الجهتين شباب وبنات يهتفون للشورة الجنسية صوت مؤذن يتنامى الله اكبر الله اكبر في الوسط المبارزة مستمرة اناس يتفرجون وآخرون لا يعنهم الامر بين حين وآخر تنثر على المتبارزين زنايق أو فضلات قمامة الساحة في حالة صخب وضوضاء لا مثيل لها وبين هذا الهرج يحاول الجنود ايقاف الضجة فيفشلون

تحتدم المبارزة فيجرح احد المبارزين خصمه تحت عينه يحتاج الجريح وتعلو الهتافات يدور الجريح حول خصمه محاولا رد الطعنة يخيم صمت هلع يرتفع صوت الشيخ عبر الضوضاء

وسألهم الخليفة كيف فعلتم به فقالوا جاءنا في ثمانية عشر من اهل بيته ونيف وخمسين من أصحابه وانصاره فسألناهم أن ينزلوا على حكم الامير أو القتال فاخثاروا القتال فقتلناهم عن آخرهم وهذه رؤوسهم وسبائهم ، أما أجسادهم فبارض كربلاء مطرحة تصهرها الشمس وتذروها الرياح وتنوشها العقبان »

ترتفع الهتافات طعنة الجريح تمر تحت إبط الخصم الآخر يزوغ وبحركة بهلوانية يطعنه تحت عينه الثانية . هياج اصوات مختلطة . يتمدد الخوف مع قطرات الدم التي بقعت أرض الساحة الجريح يزداد شراسة فيلوب حول خصمه وهو يهدر ضرباته عشوائية ينقض على خصمه كالصقر لكن الآخر يميل فينبو رأس السيف

هناك أنا وصديقي القديم صامتان أنا وصديقي القديم محايدان . الحزن بين سيفين مسنونين مصروع لا محالة . أنا

وصديقي القديم في نقطة منسية من محيط الساحة مدثران
بالحزن فقط

هو ذا الآخر يدور الجريح أعياء النزف حركاته صارت
بطيئة الآخر يشرع سيفه يمدّه نحو الشرفات من الشرفات
تأتيه قبلات النسوة وقد رفعن الستر عن الوجوه والصدور
يقوم بحركات توحى بالنهاية يرد القبلات بحد السيف
أصوات حركة ويصبح خلف خصمه وبكل شبق القتل والجنس
يطعن يخترق السيف الظهر حتى القلب فينكفيء المصروع
بهدوء المنتصر يقترب منه يرتقي قفاه ويشرع سيفه في الفضاء
بين التهليل والهتاف والتكبير وفي لمح البرق يحتز رأسه ثم
يرفعه على رأس سيفه تختلج الجماهير بجنون الدهشة والخوف
فيندفع كثيرون نحو الساحة الجنود يرفعون المنتصر على
الراحت وهم بصرخون

اختفى صديقي واختفى الناس فرغت الساحة إلا من
الجثة المقطوعة الرأس والصمت بخطا موتية أعبّر الساحة
وأنا منكفيء .

جهير أجنانزياً يخترق الفضاء صوت المؤذن ثم يتمدد الصمت .

الصيد وحكايا البشر

وراء المدينة كهل منذ الدهور الاولى يعيش في كهف
عتيق التقيت به يوما وأنا عائد من رحلة صيد في وجهه
سمات القدم ، وخلف بحر عينيه الصافيتين يقوم جلال السنين
والمهابة

— سلاما ايها المحترم قلت

خيل الي انه رمقني من زاوية عينيه وأوماً مجيباً

كانت رحلتي مضنية التعب أفرغ أعصابي من القدرة على
المسير ، والعطش نبّ في الحشاشة فأبس العروق سألته :

— ماء جدّي . لديك ما يبل الريق ؟

نحو أجمة سنديان صغيرة ، رنا دون ان ينبس تحركت
نحوها فاذا بزمزمية يقطين مملوءة بماء قراح .

شربت كما يشرب صياد قذف منذ الصباح ساعات ممضة
تحت الهجير ، في سفوح ووديان غارت ينابيعها

على صخرة كبساط مستدير استوى الشيخ أمامه كتاب
قديم مهلهل الصفحات ، أصفرها لكنه فسيح كالسهول راح
يقرا فيه بعد أن شربت استلقيت قرب الكهف فشعرت بحرارة
الأرض ، وبالرهبة أيضا
- لماذا هو صامت ؟

قالت النفس .

وقالت أيضا : ربما كان من أولئك الذين حكى لي جدتي عنهم .
تذكرت حكاياها وأساطيرها القديمة التي كانت ترويها لي
في العشيات كهوف نائية مهجورة خلف مدائن الإنسان ،
نحتت في الصخر ، يعيش فيها بشر عافوا المدن غادروا
أجسادهم واكتفوا بالمن والسلوى ينزل عليهم من ضمير الغيب
يعمرون آلاف السنين ، أرواحهم تغادر العالم متى شيء لها ،
ثم تعود كخطف البصر

كنت اندهل وهي تروي فأقول جدتي اليسوا آلهة ؟ اذ
ذاك كانت تنهرني قائلة حاشا هؤلاء يا صغيري الأشخاص
النورانيون

وأصمت مرتعدا من الخوف ، لكنني اغتاض لعجزي عن
التمييز بين الله والنوراني .

خلال تيار الذكرى انتابني الارتعاد القديم نفسه تمالكت
وهمست لا بد أن يكون منهم !
- عمي الشيخ هل لك أرض هنا ؟ سألته

تخيلته يرفع عينيه البارزتين ، ثم يشير الى السهول والجبال
المترامية ثم يتابع القراءة في كتابه العظيم
مذ كنت صغيرا وأنا أدس أنفي في الأمور الكبيرة التي سمعتها
تلك الجدة : الأمور المحرمة

كثيرا ما كانت تهول لي العقاب ، وعندما كنت أسأله
جدتي الاله اليس بشرا مثلنا ؟

كانت تستشيط غضبا ، تتهمني بأن روحي شريرة ، وانني
ولد أستحق الجلد علي هذه الاسئلة

ويوما أخرجتها جدتي لماذا لا ينزل الرب على الارض ليري
فواجع البشر ، يعيش بين العباد وينسف الشرور ؟ فقمزت كمجنونة
وسدت لي فمي ، ثم صفعتني على وجهي وراحت تتمتم
استغفر الله استغفر الله لا تؤاخذة يا رب ثم انهمرت دموعها
ومالبثت أن احتضنتني وطوقتني بحذب لافة ذراعيها وثوبها الرث
حول جسدي، وهي ترتعد فرقا من صاعقة ستنزل على بيتنا
وتحرقه

في تلك الليلة اطمأنت جدتي اذ حمتني من الصاعقة ، لكن
الصاعقة نزلت فوق بيت جيراننا الفقراء ، وقتلت اطفالا ليسوا
شياطينا ولا يثيرون أسئلة محرمة

مع الزمن عوقبت بموت جدتي ما عادت تروي لي حكايا
وتعلمت أنا الصيد

عندما عاود الشيخ قراءته وتضفر بالصمت ، انتابني
الاحساس الابليسي القديم ، فصممت أن أخرج الشيخ بالحكايا :

الجبال كما ترى يا جدي قاسية هناك تطارد الارانب والوعول
والتعاب يطاردك ، وعندما توشك على الهلاك يفجؤك الصيد ، لكن
الريق يكون قد جف واليد خانها التوازن ، على العيون يتصبب
العرق ويخرها ، وهكذا تضيع الطلقات في الفراغ البرّي
تصورت أنني أشحت الصمت عنه ان لم تكن روحه قد غادرته
استهوطني الحكايا فتابعته أنا صياد يا جدي من قديم الزمان

صدت الارانب والوعول والخنازير ، أطلقت رصاصي على الذئاب
والارانب والنمور ، ولم أوقر طيور الحجل والسنونو ، حتى
الحساسين قتلتها ، على قدمي هاتين مشيت آلاف الكيلو مترات ،
لحست الندى وأكلت حبات البطم المرة ، وفوق نتوءات الصخور
تحت الشمس الحادة ، هويت من الاجهاد

جلدي شوته الأشعة فاكمد من سفعها ، واطبق الليل علي في
رحلات بعيدة ، فكنت آوي الى جحور الثعالب ، اتكور داخلها
وأنام رmqته وأنا اداعب ذرات التراب الساخنة ثم افقتها
كان صامتا كالحجر لماذا يصمت ؟ قلت في سري

كان الكتاب مفروشا فوق زكبيته ، وقد تقرفص كمكبيل
وتددت إلتياه في استدارة الصخرة ، فبدا منفرزا هناك يشاهد
المسافرين بلا حراك

كانت نظراته مثبتة في وجهي فسألته أيها الجليل هل
لك بسيجارة ؟

استوقفتني اشارة دهشة خيل الي انني لمحتها بين حاجبيه
فانكفات أشعلت لفافتي ، لكن نظراته ظلت مصوبة الى صدري .
كالأخوذ تابعت اعترافاتي تحول الصيد هوسا رسا في وهاد
النفس صار حياة ومصيرا المهم ان تقتل وينتشر الدم ،
الصيد لا يهمه الا أن تشرق الشمس فوق مذابحه ألم تجرب
القتل يا جدي ولو لمرة واحدة ؟

صدقتني ليس هناك ارووع من منظر حي تستل منه الروح
وهو ينتفض فوق الارض .

اسمع هذه الحادثة المثيرة ، ولتقل ما تشاء عنا نحن
السفاحين الذين التبست عليهم الامور المحرمة فتاهوا في برادي
الرب يقتلون بلا رحمة :

ذات فجر ندي همت وحدي في الجبال الوعرة وكما
يحدث في جميع الرحلات التعب ، العطش ، القيق الحارق ،
ومن ثم اليأس

حتى الغروب لم اطلق طلقة كانت البراري مقفّرة لكان
احياءها هجروها فجأة رايتني أعبر مضيقا على جانبيه
تسامقت صخور مسننة ، وكان قلبي يخفق ، أحسسته يكاد
يخرج من صدري ، وكانت الارض تلتهب تحت قدمي

لست أدري اية لعنة رمت ذلك الأرنب في طريقي ارنب
صغير وثب من أجمة ثم ما لبث أن توقف وغرس عينيه في عيني
لماذا تحديق في يا سيدي العظيم انا آثم في شرعك ؟ قلت ذلك
في سرّي

لا ادري سوى أن ما حدث كان ومضة قبل ان يهرب
الأرنب سدّت نحوه وضغطت الزناد تدرج الفرخ فوق الغبار
ودوى الوادي مرة أخرى انهمرت الطلقات على جسد الصغير
هو يختلج

مرة ، ومرة ، ومرة وفي دوار المحموم المستثار ، المرمي
وحيدا في جحيم البراري ، رحت اطلق حتى تمزق الجلد واللحم
وهمد اختلاج الأرنب

لن انسى ما حييت تلك الكوى الأرجوانية في جسده الممدد
الخامد

اتعرف المسافة بيني وبينه ؟ كالمسافة بيننا الآن !

— قل لي سيدي هل لامثالي غفران ؟

في وجه الشيخ لم تختلج عضلة بدا وكأنه اعتاد هذه
الحكايا

لم يتزحزح كأنما ملايين الحكايا تروى له كل يوم ثم تعبر

كالصدي ، والشيخ سامر الاحياء وعزاء المسافرين منصت لا
يريم وتستمر الحكايا

سألته فجأة سيدي هل انت في هذه الضواحي من
أمد بعيد ؟

تخيلت رأسه يهتز الى الامام هزات رتيبة ثم يعود الى ثباته
الاولي وقلت لنفسي ربما من قبل أن اولد وأتعلم الصبد

واذ استمر في قراءة كتابه القديم همست قد يكون عن
حكمة الاقدمين علمه الكثير عن اسرار البشر ، وهو هنا يزود
الفادين والبادين بالماء والحكمة ولكن لم هذا الصمت العجيب؟

بعد ان اشعلت لفافة اخرى قررت اثارته بالبوح بسري الذي
حفظته لنفسي سنين طويلة :

الارنب الذي قتلته ياشيخ كان انسانا قتلته للتشفي ،
ولم يحدث ذلك في برية انما في باحة محاطة بالاسلاك الشائكة
أكثر من الفي بشري شاهدوني اقلته

في يوم قانظ كنت سجيناً في قفص من الصفيح ، وكان
القفص محاطاً بمئات الصيادين وقد تأهبوا ببنادقهم المحشوة
ينتظرون الاشارة ليطلقوا عليّ في لحظة واحدة

كان الحرس يعتزمون قتلي من خلال الصفيح وبينهم كان
قاتلي سيضيع

هل تتصور ان تنهمر آلاف الطلقات على جسدي الصغير ثم
يقال وارينا الكلب في موضعه ؟

هيه هيه كم يستحق هذا القهقهة آه لو تفهقه
معي يا لصوت المطر والبرد يقرع الصفيح ثم اللحم موسيقى
اليس شجياً إيقاع الموسيقى

في تلك اللحظة الرأسمة تذكرت اغنيات أمي عن الحب والمطر،
والآن أتذكر انني نجوت وانتحرت أمي
ايه ذلك اليوم ما أرهبه ، لو شهدته ايها المحترم

على وجه الشيخ لم ار ايما علامة تبدى وجهه أصم
حرثه الزمن بالوقار والصمت واللامبالاة وللحظة لمحته كجبل
معمم محايد يطل على الدهور من خلال حكايا الناس ، بينما
انطرح أنا تحت قدميه كقط مذنب

تمتعت آه ما أتعس البشر

ورغم نمو احساسني الخاطيء بالاختيار حول صلاحية هذا
النوراني حكما ، الا انني لم اتوقف عن الاعتراف

نزعت جزمة الصيد وقد جرحت قدمي فرميتها قرب البندقية:

والذي اذكره ياسيدي المبجل ان اليوم كان يوم هياج
والشمس في مرج الظهيرة والنفوس تصيح صيحات الثأر ، ورايات
عبس وذبيان تخفق في الريح تطلب الدم

كانت القمصان الارجوانية تغطي أجساد الفتية المطروحين
على اديم الساحة كانوا مغمضين العيون لايتنفسون

وتعالى الهياج والهرج هزجا كأعراس الجن في الشوارع
بين الغابات ومن البيوت الآمنة أصوات الباعة والاطفال
والنساء الحوامل. طلقات تختلط بالانين والسقوط على الارض.
والدم يطلب الدم ، والرايات مشرعة

خيطة الموت بالنجاة ، والصدفة صارت مهرا أعمى يجمع
ويدوس وانا أنتظر دورة الفلك

هل ثمة جدوى من وصف الشاعر وأنا أنتظر في قفص الصفيح
مرور الدقائق الخرساء ؟ هل كانت الدقائق تمر ؟

كان الزمن معلقاً على جدار القفص ، وكان معي الفتية الاحياء
الذين صادهم الفلك لقد بدوا في ظل الشمس حجارة حوالها
الرعب الى دمي من الشمع عديم اللون

رويدا رويدا خفق خوفي ، متمهلا ، متسارعا ثم مالبت أن
سكن كالحجر في قعره الخاص

التذكر الولادة ، الاصدقاء ، الحب ، طفو الحياة على سطح
العرشة

ثم النسيان غابة حزن معتمة طوف فارغ فوق بحر من
سديم ثم الدوار

مرة أخرى التذكر أمي . صبيتي التي أحبت تحيا أن أعود .
أشياء أخرى تعبر خطفاً كالبروق . ثم النسيان

الصفيح لم يثقب لينته هذا الشيء التافه ما زال الهياج
في الخارج والدم لا يرتوي وثارات القوم لم تخمد ما زلت حيا .
ألمس جسدي الدم تتدفق في النبض أهاجر مع الذكرى .
هل بقي فرح ؟

ما أنعسنا جميعا البراءة ، الاخلاص لتبني مجدا للآخرين .

ها أنت تموت وحيدا كذبابة تسحق في حيز ضيق أمي الآن
بماذا تفكر ؟ هل تعرف لماذا أموت وهل توافق على موتي ؟

وينجر النسيان كفنا أسود كهذا اليوم ، فوق نعش فارغ
مات الكلب

كل الكلاب تموت هكذا ، والنفس لا توقع قرار التصديق

ايه يا للمجانبة التي تحدث فيها الاشياء ، بل يا للتفاهة
اخيرا دار الفلك ترحزح الزمن عن جدار القفص فرماني في
الساحة وفي يدي بندقية محشوة بالطلقات ، وعلى مسافة متر
واحد كان الانسان الذي قتلت

كل الرصاصات أفرغتها في جسده كان بامكاني أن أقتل
جميع البشر بلا رحمة جميع البشر بلا استثناء أجل جميع
البشر أتفهم لا

ارهنقني الاعتراف وأنا أتملى هذا الشيخ الصامت وراح
الضباب يعمم الجبال والغابات البعيدة وأسراب من الغربان
تنعق عائدة الى اوجارها ، وبدأ الاصيل يزحف متعبا فوق السهوب.
كان ما يزال ينهل الحكمة من سفر الوجود. نسال فلا يجيب.
يحط المتعبون في رحابه ، ينفضون جيوب نفوسهم وهو يستمع.
وددت أن أصرخ في وجهه العقاب ، هل من أجله يولد البشر ؟
لكنني كتمت صرختي وقلت لا تملّ فأنا وحيد تعس أمضني
التعب والصيد والبحث عن يقين ، لهذا أروي لك !

- ٢ -

قلت للشيخ بعد أيام من حدوث معجزة نجاتي ، انقطعت
عني الرسائل ، ثم فجأة وصلتني برقية تطلب حضوري فورا
سافرت الى بلدتي الصغيرة ، وهناك صعقني النبأ اتعرف
كيف ماتت تلك التي كان اسمها أمي ؟ خيل الي أنه يرنو الي بعين
سارقة مهتمة فشرحت

خرجت الى ساحة البلدة ومعها سكين وزجاجة ووقفت
في الوسط ثم كشفت عن جمعة شعرها البيضاء وبسطت ذراعيها
رافعة رأسها باتجاه السماء وصرخت لقد قتلوه ، ومزقوا

لحمه الطري الصغير بالرصاص

كانت أمي يا جدي ورة تتلو الصلوات ، وتبجل جميع
القديسين والنورانيين ، واذكر انها كانت ترنم لي مع أغنيات
المساء هذه الجملة

إذا وقعت يابني فادع الله يحضر اندبه في الضيق ينقذك
من المكاره انه غفور رحيم وسعت رحمته السموات والارض »

لكن الفاجعة أفقدتها الصواب . لقد جذفت يومها ايها الغفور
اين أنت ؟ لماذا لم تنقذه أي ذنب ارتكب حتى يموت ، أي ذنب ؟
وانهالت تمزق ثوبها وتطعن جسدها حتى تعرت من آخر
قطعة ثم بترت ثديا وقذفته نحو الاعلى خذ حليبك خذ
أطفالك

وقطعت الثدي الآخر ورمته في خندق قريب فتناوله كلب
مقع حمله بين فكيه وعدا به نحو المقبرة . وراحت تبصق لعاباً
مغموساً بالدم

تحاملت فأمسكت زجاجة البنزين ودلقتها فوق جسدها
ثم أوقدت اللحم العاري

كانت أمي قد تحولت شيئاً آخر بعد الحريق كومة سوداء
ذات رائحة كريهة أمام أعين البشر عندما اندفعت امرأة خاطئة
شاقة جموع الشهود وارتمت فوق الجسد الخلاسي الذي خمد
عذابه

وفشلت المرأة الخاطئة لانها وصلت بعد فوات الوقت
للمت بقايا من كانت أمي وهي تبكي عليها ، ثم دفنت تلك الرمة
من الفحم لم يمش وراء الجنازة غير الكلب والقطعة التي ربتها
أمي ، وأفتى الحواريون التقاة محرم عليها الدفن والصلاة لانها

خالفت الرب وقتلت نفسا حرم الله الا بالحق ، وذكرها ملعون
في العالمين

هذا ما قصته علي المرأة التي أرسلت الي برقية الحضور ،
وأخبرتني بأن الناعي جاء يقول لامي رأيتہ بعيني يموت في
مجزرة الضحى ثم روى لها بأنه هرب هو من الاسلاك الشائكة
خلال المذبحة بعد أن رأهم يمثلون بجسدي واجساد رفاقي
الفتية وائر هربه لم يكن يسمع الا دوي الرصاص وقالت المرأة
بأن أمك هرعت نحوي منقوشة الشعر مشقوقة الصدر وكأنما
أصيبت بمس وراحت تصرخ مريم مريم لقد قتلوه
الوحوش لاترتوي من الدم صارت الصحارى نحاس والفجر
كالشفق من الثارات ويلاه ابني لماذا يموت ؟

كنت استمع ياسيدي الى مريم وهي تنشج ، وأنا راكد
كمستنقع سمعتها تتمم من خلال دموعها أمضيت الليل
بجانبها أواسيها . كان ليلا مرعبا مليئا بالانين والهذيان والاصوات .
وحتى طلوع الفجر ظلت تهلوس كلمات مبهمه .

وقلت لمريم ايه صاها الموت ونجوت انا كفى كفى

وأقفر بيتنا ياسيدي جللته الفاجعة ففدا اعشاشا لبومات
الليل وموطننا للريح والنسيان ، وأذاع الشهود ان ارواحا شريرة
تقطنه وان شبح عجوز شمطاء محروقة الوجه مقطوعة الثديين ،
يجوسه في الاماسي ، وأن ذلك الشبح لايني يعوي بصوت
حيواني لايفهمه أحد ابتعد الاطفال عن البيت ورتع العنكبوت
في النوافذ والكوى وسطا الجيران على الدجاجات وصادوا*
سرب الحمام الابيض الذي ربته امي ، ثم مع الزمن تهدم ويبست

شجرة التوت وفي البراري هامت القطة التي صارت وحيدة
فتوحشت وراحت تلتقط الحشرات والعصافير والصيغان
الميتة

- ٣ -

هكذا منذ البدء ندور كالافلاك في مدارات التعب بشر
اكثر من النجوم نخضع لقانون جاذبية الاعظم تنشد رقابنا
نحو الملاء الاعلى تتوتر صواتنا باتجاه الشيء العصي على
الفهم ، واحد ما لا يدرك ما قاله السيد الحلاج ما في جبتي
الا الله

وبقي الصدق الاعظم والكذب الاعظم متجاورين ، ووحدني
ما زلت أتعرف

لكن الكهل صديق الرياح والخائفين ما يزال هو الآخر ينتشي
بحمام الصمت

يهضم حكمته ولا يفرزها والتائهون يتكاثرون كجراد
أصياف الجوع متعبون من الشمس والحصاد وعتل الصخور
وحمل البنادق ، يحصدون أنفسهم والآخرين ، ويدخلون المخادع
المحرمة يشهدون الزور ثم يرتلون الآيات يتواكب نسل
التقدس والتمجيد للباري ، والدود عن نخر الخلية لا يتوقف

وها أنذا عن الجميع أتعرف

حزت رقبتي حقيبة الصيد سللت رأسي من علاقتها ورميتها
قرب الجزمة والبندقية وحزام الخرطوش وفيها زوادة رحلتي
مرة ثانية استيقظ عطشي ، قلت للكهل أسمح لي ان
أشرب من يقطينتك للمرة الاخيرة ؟

تخيلت انه أوماً موافقا فنهضت وشربت وسوست النفس:
ألا يكفي الماء المتعبين لماذا الحكمة ؟

وتابعت حكاياي شقية حياة الصيادين كما ترى يا كهلي
المحترم مليئة بالمفارقات العجيبة ، واكثرهم لايجرؤ على
الاعتراف ، يبنون اقبية من الكلس الهش داخل نفوسهم ويدفنون
فيها الاسرار في تلك السرايب المظلمة تكمن حقائق الانسان
الذي لا يحتاج التبرير ولا الحكمة هناك ترى الدهشة والحب
القتل ومدائن 'الرغبات التي لاحدود لها وهناك يرتفع الكذب
الاعظم والصدق الاعظم وفي تلك المدائن مريم ليست خاطئة.

خلف تلك التلال ذات الخضرة الابدية ، التي تراها تنام
بلدتنا الصغيرة فيها ولدت مريم ونمت كشجرة غضة
لرشاققتها سموها الوعلة ، ولحسنها الانثوي العذب هام بها الرجال
المتزوجون وعندها حتى فتية المدارس رأوها وهي تفنح على
طريق العين فاعترضوها، وشاهدوها ترقص في مراسح الاعراس
والاعياد ، حارة موردة فتشهوها بشبق اودى بهم الى نزاعات
لاتنقطع

كانت آلاف العيون تتفرس في بهاء وجهها العقيقي أبدا ،
وفي الاحلام نالوها دونما اذن أو رغبة منها

ومع الزمن أحس الأب ان ابنته مهددة بالقطع فالقؤوس تدور
حول بيته وغضب الرجال الجنسي متوتر ، وفي وجه هذا
الغضب المتوحش لن يقف حائل فقرر أمرا

كان النقص قد تلوى في خلاياه هو الآخر ، وفار الغضب
داهمه الدود الناهر والشهوة صارت رمحا ، ثم انقلب الرمح
افعى ولولبت الافعى لسانها

عن الخروج حجرت مريم فافتقدها الجميع ،وسرت همسات.

انتشرت اشاعة وتنبؤات ، وقالت حيزبون مقربة من الاهل

مريم مندورة هبط الملاك على الوالد وهدده إن زوّجها
ليحرقن زرعه ويجففن زرعه ويقطعن ذريته عن سطح الارض
قلة من الناس صدقت النبوءة ، وظلوا يرحلون في أحلامهم الى
مخدع مريم السري.

ومرت أيام وشهور ، ومريم ما تزال رهينة أصاب البلدة
محل اذ غاب عنها المطر ، وقاظت نهاراتها ولياليها فنضبت
الينابيع وذوت الخضرة الدائمة وشهرا وراء شهر هاجر كثير
من الرجال الى ما وراء البحار وكان جوع شديد كافر

وذات مساء سرى في البلدة نبأ غريب مريم حبلى

هجمت الريبة الى ضمائر الناس فهزهم النبأ ، ناسهم
الصدق والكذب بين مداريه، وقالت الحيزبون في بيوت السمّارة:
نفذ الوعد وعد الملاك حق ألم اقل لكم انها مخطوبة للملائكة
منذ الطفولة ؟

ورفض كثيرون البدعة محال حبلى من الريح ؟

تذمر رجل ثم تجرأ الملائكة لا تحبل في الامر سر

وردد معه آخرون علينا أن نكشف السر

وفي أمسية اجتمعت البلدة وقرر عقلاؤها معرفة الامر

أرسلوا وفدا عنهم الى بيت مريم ، لكن الوفد عاد مطرودا ،
وقال ان الاب شتمنا وصاح في وجوهنا ابنتي طاهرة ولن
تنشروا في بيتي فضيحة ثم وسم أهل البلدة بانهم كلاب
وخنازير تريد الولوغ في شرفه

بين الغضب والهيّاج وفوران الدم نوقش الامر ، وأخيرا
قررت الجموع اقتحام بيت مريم

وفي ليل عابق بالنجوم والاسى ، تحركت جماهير غلّتها
الهيّاج حملت فؤوسها وعصيها ومشاعلها وتوجّهت نحو
البيت المعزول عن البلدة

— من اللصوص ؟ صاح الأب

— لسنا لصوصا نريد المرأة الخاطئة قالت الجماهير

— أنجاس وشريرون اغربوا عن بيتي

— أرنا زوجة الملائكة والريح

— أعطنا مريم يا يوسف الكذاب

وعلى الباب وقف رجل ضخم صلب القسّات ملفوح الوجه،
عيناه تلمعان كالنمر وفي يده بندقية صيد اطل على الشهود
وزار

— ماذا يريد قضاة العالم ؟

وخفق الصمت اغل الكتلة الادمية ، وتمددت السكينة
فوقهم فانكسر الهيّاج

تعالى صوت الرجل بفيتكم يا ذئاب الغاب ؟

احتضر صوت ناء سؤال مريم عن بعلا

غصّ صوت من داخل البيت اسألوه هو

هتف الأب ممزقا خداع السكون غرستي زرعته صغيرة
وربيتها حتى نمت واثمرت من احق بشمار الشجرة من غارسها؟
وعقلت الدهشة ضمائر الحاضرين وقال الدهول: انا غابة الاسرار،
حكاية سندباد طاف جزائر العالم واستلقى بين قشرة الحياة
ونواة الرغبة وتابع الاب : من منكم لم يكن راغبا بها يا ابنساء
سدوم الي تضرعتم ان اكون قديسا يقدم الموائد الشهية ، ولم
تطلبوا من آلهتكم ارواء العطش والجوع الساكنين في خلاياكم .

في ظلام الارض تهتم بحثا عن الرضى والقناعة ولم تتخاطبوا
انبياءكم يوما عن حاجاتكم عن النقص في الضلوع وتشنجات
الليل المخنوقة واستمرار الآثام فوق الارض وبدأ صوته يعود
الى طبيعته تذكروا تشهيككم السرمدى لزوجات وبنات جيرانكم
واصدقائكم ، تذكروا الموت الصاعق في منتصف الزمن قبل
الايوان هل تساءل أحدكم يوما لماذا الخلية البشرية معطوبة
يقضمها الدود الجائع منذ الدهور الاولى ؟

وعاد الصمت وشاحا يكفن الناس والليل تمتص صوت
أحد الحكماء صاد الأب ابنته

تبعه صوت الى جواره علا أكثر الزاني اقتلوه

وعاد الأب الى هديره المتوحش: عودوا الى جحوركم يا حشرات
الارض برّروا أفعالكم أولا ثم شكلوا المحاكم صيروا
قضاة حماقاتكم السرية قبل ان تطاردوا الآخرين بهياجكم
البربري كل نفس تحمل وزرها وحيدة في عالمها بالمعصية
والرغبة أقسم من يتقدم منكم مثكول

قال صوت احرقوا الفاسق سيرجمنا الرب بالحجارة
والصواعق ان تركناه

وقال آخر هذا الرجل يسفه آلهتنا

ونده آخر اثاروا لرغباتكم انتقموا للعدل الرباني عاش
الرب وليسقط الزناة !

وسافر الصمت متعثرا في دروبه الخفية تم تمور الهياج
والغضب وكبل الرجل الوحيد أحس بأنه سينهش وان سورة
الذئاب ستفترسه، فقال بصوت عادي قد أكون الآن في المصيدة.
لكن كان ما يجب ان يكون ، وفي العالم أيها السادة ما هو أعظم

وأفزع، والخطيئة بعمر الكون مذ وجد الانسان. جميعنا صيادون
منذ قابيل حمقى ومبعثرون فوق سطح الارض ، و قليلا ما نميز
الخير من الشر تلك ارادة الخالق

تنمر الرجال فانقذف مشعل في حديقة البيت تبعه صوت
حكمتنا عليك بالموت أيها الزاني

صرخ الاب مدعورا وأنا حكمت على اثنين منكم يا حمقى الزمان
وارتمى مشعل آخر خلف بوابة البيت أعقبه هرج وصيحات
مزعت هدوء الليل ، وتحركت الكتلة خطت في عين الاب فصارت
قدره الاخير

في اطرافه تمشى الموت هادئا عندما انقذف مشعل وارتمى
بين قدميه وندت صيحة الموت مطهرتك مت لنحيا ! ومن داخل
البيت صرخت مريم
أنا فديته

الى يساره سقط مشعل آخر ثم الى يمينه فلم يتزحزح
أضيئت عيناه بشعاع غريب قتل ووجل ورتاء ، هي كل
ذعر الارض وخيانتها، استلقت في المسافة ما بين عينيه والحشد.
وقال العقاب أنا حصاد الاعمار في ماتم البشر المتواصلة.
ثم سقطت مشاعل خلفه وطوقته النار

وانبهق التذكر مريم غرسة الشهوة ولدت مني ثم عادت
إلي استرددت شهوتي هذا ما حدث للوط في زمن ما بعد
الطوفان جدي اضطجعت معه ابتاه ، وأنا اضطجعت مع
ابنتي ، وها أنا أعاقب بارثي القديم أه سال الدم في عروق
الاجيال حتى وصلني يا للمهزلة المؤسية : وحضر النسيان
غيمة السديم والغياب خلف قشرة الزمن الحي
ثم التذكر مريم مرة أخرى. خيبة هذه الجماهير النشوة

التي انقضت جرنى الذي عمدته وتعمدت فيه رضاي وكهف
عمري في الليالي الباردة

النسيان أيضا والحشد ما زال يدوي كازيز نحل في يوم
ساخن مشاعل وأصوات بلهاء تفرع ليل الاطمئنان والبندقية
في يدي ستقتل اثنين اثنان لا على التحديد سيموتان بحماقة
ومجانية خسران البشر المستمر صيد دائم ولا شيء آخر.

ولطمه مشعل في وجهه فاحمرت عيناه وسالت دمعة
وداعا يا مريمي يا حياة كانت هنيئة وضغط الزناد الاول
ندت آهة واختلج جسد ثم تهاوى اندعرت الفوغاء وراحت
الفوانيس والمشاعل تتحطم ، وتعالى الهرج والضجيج آهة
شيء ثقيل يسقط قتلت يا موتا يكفن حياة مثقلة وهجمت
الزحوف . وهرعت مريم

- احرقوني معه

على الأب والزوج ارتمت لتحمية تشبثت بشيابه وغطته
بجسدها

- اقتلونى أنا أيضا

- ابعادوا الزانية

- كان حياتي ولباسي أيها القتلة

وامسكوا بها نزعوها عنه

- اهربي يا مريم صاح الرجل الذي يحترق

وجرتوها

انفرد بها نفر منهم في حديقة البيت تحت ستار أيكة مظلمة ،
بينما أنهى الآخرون صيدهم

كان الكهل قد غفا الآن أتعبته الحكايا ففاص في جب نورانيته .
نهضت واقفا والنفس ترنم أيها اللاشيء العظيم توار في صمتك
الدهري فأنا راحل

رميت طرائدي قرب بندقيتي وعدة صيدي ورحت أغد
السير وحيدا فوق الأرض ، وفي مواجهتي الظلمة والنور ورياح
اليقين المزعزعة

صيف محترق

« في حزيران الماضي احرق شاب وسيم مصاب
بانفصام في الشخصية نفسه بالبنزين على ايقاع
موسيقى زنجية في غرفة مغلقة بعد ان ترك لأمه
وصية بسيطة ومبهمة : « العالم مليء بالاطفاء
والانسان لا يستطيع أن يفعل شيئاً . انني اموت
لانني لا اصلح » .

ومر عام وليس مثلنا من يتقن رصف الايام ثيابك المفلوحة،
ما تبقى منها ، تنام في صندوق العرس وفي مثل هذا اليوم
هطل المطر صيفا

ولم يكن لي سواك من مخلوقات الرب، وعجوز مغربة العمر

تمضي في الصلوات الليلية زمانها الأخير

— أصبح ان ذلك قد حدث فعلا ؟ »

الحديث من الرعب والمفاجأة بحيث يوقف فعالية الدهن ،
أكاد أقول يدع الجحارة تنتحب

وما انتحبت امام الحضور

— لماذا ؟ »

لقد مت في اللحظة التي كان المطر ينسكب فيها ، وبالمجانة
نفسها

انتحب المطر عني بما فيه الكفاية ، وقال المعزّون كلماتهم
التقليدية باجلال مفتعل ، وسخف وراثي اصيل ، ورفض الشيوخ
ان يصلوا المنتحر مجوسي لاتجوز عليه صلاة الجنازة وتحت
سماء دمشق العذبة الحزينة ، شيع الفقراء وحدهم نعيشك الذي
لم ينصل عليه

كيف حدث ذلك ؟ »

★ ★ ★

من يوم الى يوم ينسى البشر همومهم كل فجر حابل بألم
جديد ، فكيف بالعام يزحم عاما آخر ؟

هاهم يسبحون داريهم ، ويتاجرون ، يصفقون في باحات
السيرك مأخوذين بالضحك والتشني أما أنا فلم انس كيف حدث
ذلك

الكوابيس المفزعة تتوالى كطيور سود متوحشة في ليالي
الوحدة وزفير الحريق ينمو ويتعاظم ، مغطيا حدود الافق ،

والناس نيام

— الحريق الحريق

وتوقظني العجوز ملهوفة عزلاء كالطفل ، واذ تفيق تتلو
آياتها القديمة ، تسجد وتدعو ، وتساغر الايام

في الايام الاولى حضر بعض الناس صحاب وجيران
وأقارب ناح من ناح حزنا ورياء ، تمتموا ادعية وتراويل
حفظوها عن اجداد اجدادهم ، ثم غابوا ومع الثياب المحترقة
والعجوز واشباح الفجيعة ، بقيت

وامتطى الزمن مهره وولى

كلما حاولت التذكر والدخول في شبكة ايقاع خطوات
الموت يجيبني حاجز الموت الاصم : لقد مات وكفى !!

— « مات محترقا في يوم مطير »

كان ذلك مفزعا حتى الدهشة ، غريبا كولادة امرأة تحت
قصف القنابل

ومع انني كنت اسخر من صلوات العجوز الليلية ، وآخر
ما كنت افكر فيه الايمان الا انني في لحظة الاحتراق ،
صحت بوجع ام تشكل نجه يا رب وانذر نفسي اليك !
وما نجوت

ومع مرور الايام ازددت يقينا بانني ما رببتك كما ينبغي كنت
ناقصا على نحو أوحى الي أن دمي وحليبي كانا مشويين

★ ★ ★

من التاريخ في الانسان من الرجل في المرأة ، ومن
شهوة الاغتصاب الفج ، ولدت
كان وجهك رائعا كالبدن ، وقامتك ناشبة كنخلة برية في

واحة واذا خطرت أمام صبايا الحي صحن بنشوة سرية
ابن الحرام ما أحلاه

ونموت جسداً بديعا

فيليلي غربتني الروحية اذكر كيف كنت أرحف الى
فراشك أشم رائحتك امرغ وجهي فوق جبينك وخديك
وشعرك وزغب رقبتك اركع قرب السرير حتى مطالع الفجر
وانا ارنم لك اغنيات ربيعية ، وانتحب ضراعة لتشب

وفي الصباح تدعو ربها جدتك العجوز أن تكبر وتبقى
لنا ، تصير ضابطا قد الدنيا ، قدّ الفرح

في العيون لم يبق دمع استله الزمن والسهر عليك
لذا لم ابك عليك في حضرة الموت وبين الشفاعة والصلوات
رحب تورق وتخضر

في كل مكان كان حب الالهنا وفي كل مكان كانت براعم
الحرية تتفتح الالهنا وبينني وبين والدك لم يحدث اختيار ،
وكنت ثمرة القصر الفجة

قهرا زوجوني له وكنت في الرابعة عشرة وفي ليلة
شاحبة تمخض رحمي بك اغتصابا

اقول ذلك وأنت الآن كومة من لحم وعظم محترق ، رمة في
قبر مغلق وقد مر على انتحارك عام كامل ومن أقصى الارض
الى اقصاها ليس مثلنا في البشر من يرتب الايام من يصنع
منها توابيت وأسرة لنسيان الماضي

— لماذا جئت قبل الاوان

— ولماذا خارج هذه الارض تولد المواليد في اوانها ؟

كان ابوك عاجزا عن نيل بغيته على نحو سوي وصحي ،

كان وحيدا ملفوحا بالحزن والرغبة تشهاني وكنت تويجسة في
طور الفرح الاول ، فاعتصمني تحت راية الشرائع ، فجئت بهي
الطلعة كالشروق ، حلوا كأولاد الحرام كما يقول عامتنا

— « هل كنت مذنبه لانني لم استطع أن اعطيه غير جسدي ؟ » .

استطيع أن اتخيل الحريق كيف دب الى جسدي ، كيف
تنامى زهورا صفراء مفترسة وراح يرعى الجسم الحبيب الذي
خرج مني استطيع ان اسمع تأوهاتك والحشرات المكتومة
والحريق نس في الحلد فتتلوى يا شجاعي العظيم بينما الناس
يسبونك يهزؤون حفاظا على حياتهم المغتصبة وقصورهم
التاريخي

ما الذي بقي لهؤلاء الاحياء في أزمنة القهر

في اللحظة نفسها والدخان يحجب جراح العالم يطفئ
آخر ذكرياتك عن الناس والحركة ، انهزم المطر على السهوب
والغابات ، غمر الطرقات والخنادق سح على زجاج الاحبة
والهاجرين وفوق خيام المشردين والجنود

مطر مطر وحريق موت وبشائر سر الحياة
الاعظم الذي يشي بالروائح فقط

لكن الذي مات لا يعود

★ ★ ★

— اسمعي يجب أن تعودى اليه

— لكنه هجرنا وغادر الوطن ؟

— سأبحث عنه في كل بقاع الارض واعيده

— كلانا لا يحب الآخر

وتصرخ كأنما الحريق يشب في غابات نفسك آنذاك

— لكن انا من يدفع ضريبة الفصام

واصمت تقديسا لآلم نحن غرسناه فيك

أيام قاسية وحارة طواف خارج الحدود ، بحثا عن ذلك
المهاجر الحزين تلقاه تتضرع إليه أن يعود فيرفض ويمضي
بعيدا

وخائبا جريحا ، تعود

أيام تمضي قراءات وموسيقى وخمر موسيقى الزوج
المتوحشين المقهورين ، موسيقى الغضب والسقوط في آلا باما
والمسيحي ، في غرفة مغلقة وأنت وحيد ومحاصر

تلك كانت هوايتك قبل أن تلتحق بالجيش

— هل قلت المطر

في عصر الحزن والموت واللجوء ، يهمني المطر يعيد للارامل
ذكرى أزواجهن ، للعشاق رائحة الحب في الحدايق والجبال ،
للمفتصبين أمل العودة ورائحة المزارع النائية اما انا فيذكرني
باللحظة الزمنية التي نازعت فيها في غرفة مقفلة ، اللحظة التي
تحملت خلالها ثقل آلام الارض مجتمعة ، ثم انطفأت

لماذا هنا بالذات من اقصى الارض الى اقصاها ، الزمان
المحزون يقذف لقطاءه الناقصين الى الوجود ؟ ولماذا نحن في
وطن مكسور الضلع ؟ سألت الطبيب يوما عن حالتك فقال :
مرض وراثي ينتقل عن طريق الدم نوبة الانفصام تستمر
خمس دقائق فقط ، يشعر فيها بالاضطهاد وكراهية العالم ،
فينعزل عما حوله تحدوه رغبة طاغية في الانتحار واذ تمر
الدقائق الخمس اما يعود سويا أو ينتهي

ومرت اكثر من دقائق خمس
ساعات وايام وشهور وسنوات الصيام والصلوات
التشهي والصخب والتهم ثم نسيان المطر والحرائق ، والخيام
المزتوتة تحت الريح وما نزال غفاة

★ ★ ★

كنت مغبونا في عصر ذلك اليوم على ثيابك غبار وفي
عينيك همود ، ولم يكن معك سلاح
- حمدا لكل شيء على سلامتك
ولم تنبس كنت منهكا

وقبلتك شممت رائحتك مرغت انفي ووجهي على غبار
شغرك ، تنشقت رائحة العرق على سترتك اي فرح يفرمني
وانا ارى جندي الباسل يعود !

وزغردت العجوز

فرح غامر كهطول المطر كأشعة الشمس الشتائية ،
ازهر في ضلوع البيت اليتيم اشعلت الجدة مجمرة البخور
فانعقد الدخان وفاحت الروائح ، حملتها الريح للجيران احتفالاً
بالفارس الذي نجا

كنت مرهقا من المسير ، اذكر ذلك ويداك مخدوشتين
وملح العرق قد تخثر على خطوط جبهتك ، ونضح من خلال
الثياب مبيضا تحت ابطيك ، وحداؤك العسكري بلون الفضار

- والآن هات حدثنا عن الذي جرى

كعقاب جريح رنوت الينا شعت العينان غضبا ، ونضح
الوجه الكظيم مرارة ابتلعت ريقك كأنما سكين تحز الحلق

ومن البافذة بصقت بصاقا جافا ملوثا بالفبار

اه كيف كانت المعارك ؟

هزرت رأسك ، ورسمت على شفتيك اليابستين بسمه

بابسه ، تحاكي ابتسامه ميت معارك هه اية معارك ؟

- الحرب

فككت أضرار السترة الزيتية والاصابع ترتعش نزعت

الرتبة والاوزمة لفتتها ثم قذفت بها خذي منذ الآن اذهبي

انت الى الحرب

وضحكت انا اصير جنديا ؟

- وماذا في ذلك ؟

- وانتم ؟

- نحن ؟ ها ها قال نحن

وعكفت سبابتك نحو الارض ثم تناولت من جيب بنطالك

رزمة من الاوراق الملونة الجديدة ، فردتها بين اصابعك ثم

قذفتها نحو الفضاء فراحت تتناثر فوق البلاط محدثة خشيما

خافتا وراحت ضحكائك الهستيرية تتعالى

- خذي مالا وسبّحي للسلطان خذي

لحظتها خشيت أن تكون النوبة قد حضرت كنب فد

بدأت تصفر ثم تتفصن خطوط جبهتك ، ازرق وجهك وتقلصت

عضلاتك وعيناك شعّتا الما واحمرار ، فقلت في نفسي بدأ

يدخل في تيه انفصامه

سألتك ما هذا يا حبيبي ؟

فتمتعت منسلا من حضور النوبة روائب اضافية

للشجعان وبصوت كالرعد قلت هذه هي الحرب يا أماء
خيم صمت ووجل وتوقع قطعته انا بعد حين محاولة
اخراجك من تيهك لكن يدك مخدوشتان ؟

ونهنهت منكسرا من الزحف والاختباء
تذكرت النقص والخلل الذي غرسناه في دمك ، فأدركني شعور
مبهم بخسارة الهيولي مزنحا لأقصيك عن حالتك ، ورويت لك
نكات قديمة عن الشجاعة والنصر ، وحكايا مريحة للأعصاب
وتوسلت العجوز لباريها ان يمحو الظلم والقدر من العالم ، وان
تغمر السكينة والطمأنينة القوم المسالمين الاتقياء ، فتخدرت
فوق سريرك المصان ، المغسول بالفار والصابون المطيب بالعطر ،
انشلحت بحذاء القتال

وقبل ان تغفو همهمت تنهيدة يأس انتهت الحرب اذن
لم يعد والدك من هجرته ينتقل الآن من بار الى بار ، من
مرقص الى مرقص آخر يهيم ثملا محزونا في شوارع المدن العربية
وفي متاهات المدن الغربية ، بحثا عن امرأة وحرية وعن نفسه الضائعة.
ينام على الارصفة وفي الخانات المهجورة ، يضرب في مجاهل الارض
فيزداد ضياعا وحزنا ولا يلقي رضاه المفقود

وتنام الآن في حفرة دامسة ، ممتزجا بالارض بعد ان أفل نجم
حياتك وهوى ، هاجعا تحت السكينة واليأس في ظلام سحيق
منذ اعوام ونحن نتهلى بعد الايام التي تمضي أيام قاسية
كامتداد المدينة في عضلات القلب ، ولا من يسمع انين الارض ،
ونواح الامهات المتكولات في الليالي العميقة الحزن

«طائرات يا أمي أصوات ودوي هي القيامة يا أمي نيران
مدّ الأفق قيامتنا يا أماء دعيه يعود أريد أن يعود

الطائرات تحلق فوق الخندق فوق البيت فأين أبي دعوني أصد
الطائرات المفيرة. جسدي أماء. جسدي يسقط. الأرض تحترق.
البيت يحترق حياتي تحترق مازال حيا أماء انت صبية
أيها الرجل الشرير لماذا هجرتنا. صوب الخندق هاهم يقتربون
دعوني اطلق حرروني بندقيتي فارغة صارت عصا لن
تكوني سبية الحريق... الحريق. لا أمل. عودوا أيها الرجال
ماعداد لكم آخ آخ الناس كل شيء الدم
التاريخ الوراثة العالم كربه العالم يختنق «

واذ تفيق من هذيالك ، تراني جائمة قرب السرير فتسألني :
أين أنا ؟

أهز سريرك بدعة انت في البيت حلم يا حبيبي حلم نم
ياحبيبي نم ولتنام أدندن أغنية قديمة تفتني للصغار في المهد ،
وتسبح عيناك في السقف بينما صدى الاغنية يضع في متاهة
الليل الصامت

- هل مازال بيتنا لنا ؟ تسألني بمرارة فراقية

أقول مازال

- أين أبي ؟

وبنصف اغماضة أرى طيف أبيك ، القاه كأغيتي الضائعة
مهاجرا حزينا يشمل ويبكي ، لابلت يؤويه ولا أهل موغلا في
قفار الأرض ، مطرودا تحت سماوات غريبة ، ناسيا تاريخه وابنه
الخارج من ضلعه، والمرأة المكسورة خاطر، تواسي جراحها في
الصمت وتسهر عليك

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق »

قال الشيوخ .

وقال فقراء العامة وهم يسرون خلف النعش المجلل مباركة
النفس الملوثة تموت بشجاعة لتمهد للنفس النقية كم تمنيت ان
أفديك وأنت تشتعل في الغرفة ، يسبيك الحريق كما سبينا في
ذلك اليوم الاسود

اذكر كيف كان المطر يسح على النوافذ ، وصوت الرياح يدوي
في سمعي، صاما صوت الحريق المتدفق فوق الجسد الذي ارضعته
ورببته بالحليب والغناء حتى نما وترعرع ليشيل احزان الايام
القاسية

لكنك كنت تفنى وترمد كما البرق ، يظهر الحريق نفسك في
اللحظة التي خيل الي فيها انك تفتسل من غبار الحرب

تماما كما قال الطبيب دقائق خمس ونوبة الانفصام ترمح
في سهوب نفسك، والدم الملوث يغشي البصر الانكسار وموسيقى
الزئوج والغضب في آلاما والمسيحي. موسيقى الذل والاضطهاد.
واصوات البوذيين الذين يحترقون في الساحات العامة ، تتحشرج
تحت ضربات الالم الملغي الحدود كنت تعزف انشودة البعث في
الموت وكان المطر هو التقمص الجديد

« - لماذا احترقت ؟ »

اي ذهن يستطيع أن يتصور الانسان في عافيته المتاجعة في
سموقه النامي كشجر الحور في ضجة جسده الدافق كينايبع
الجبال الوحشية ثم يتصوره كومة من عظم معجونة باللحم والدم
المتفحمين ، ملفوفا داخل خرقة بالية كخيام المشردين ، مرميا
فوق أرض قفراء ، ثم لاينفجر ؟

هل تراك تركتني للاغتصاب الاقسي ؟ »

اراقب دبيب خطوات الزمن في وحدتي المنسية اعرف لماذا
احترقت في الصيف الذي مضى اقرا وصايا ايوب في سفر

الاسفار القديمة .أتذكر زخّات المطر ليل احتراقك ، تلفحني الريح
القادمة من الشرق المتوهج ، وأتمتم كلماتك بفرح فجائي :

لا تحزني تزوجي غير أبي ولدي أطفالا أسوياء لايهجرهم
آباؤهم ، أطفالا لايحبون موسيقى الزنوج والعزلة ، يطلقون النار
بلا أوامر ولا يتراجعون

البومض

اتجه الآن نحو مكان ما في راسي نشوة صغيرة عابرة تملكطني
غب ارتمائي على أرصفة هذه المدينة نشوة غائمة تشبه فرحا
وشيك الطيران والمدينة رائعة سماء ربيعية مزدهرة بالغيم
الابيض والغيم الرمادي ، وخلال يتسلسل قمر في فضاء عذب.

على الارض يسير الناس بهدوء ، يبدون محايدون ومجانين
العداء القديم لقامات الحجر القائمة على أكتاف الشوارع خامد
الآن عرفت ذلك من الدندنات العفوية الخارجة من بين شفتي

في الفضاء بشائر مطر ، توحى بسلام متوقع ، واخضرار
يتوج هامات الشجر يتلأأ مصقولا وأكثر اخضارا مما هو

لا لا لا لا لا

ترنيمة تخرج تسرح عبر هذا العالم المتواشج عالمي

هل قلت انني اقصد مكانا ما ؟ ربما وربما لا اقصد ايما مكان
محدد ما أشعره ان المكان يتجه نحوي ، وأنا أسرع نحو غبطة
متوقعة تحمل رنيناً مزمناً ، في نفسي التي أزمّنت تعاستها ان
ذلك الاتجاه يبدو لي رائعا ، مغطى ، أخاف كشفه

لست أدري ومن زمن بعيد ، لماذا أخاف ان تجلّي الاحداث
ذلك ما يسبب لي نوعا من الهلع الخاص الموصول بتجارب الاحباط
التي مرت

كان أبي يقول لي وأنا طفل لم أر في حياتي يوما ابيض
وبحدسي الطفولي القديم وذاكرتي التي تختزن رائحة العطب
الكوني في الانسان ، ادركت فيما بعد ان عمر الفرح ليس طويلا.
اذن لتظل الاشياء كامنة من بداياتها وراء حدود العقل اليقظ
فربما اضيف للحظة الوجد المشتعلة في نفسي الآن بصيص اكثر
من الزمن المفرح تروم للا ترللي

اثب في الهواء قاطفا غصنا اخضر واسير خبيبا اسير على
أرصعة مدينة وقور ، الحياة فيها مقننة والسلوك بمقدار رصين
على الشرفة المقابلة فتاة طويلة القامة ، تلبس كنزة بيضاء ثدياها
نافران ، ووجهها تحت الضوء بلون الياسمين فتاة عذبة قلت
وأنا اعبّر الرصيف فتلت الغصن الاخضر بين اناملي ، ثم مرغته على
خدي ، فأحسست رطوبته البحرية تمنيت خطفا لو اتمرجح
فوق مروج الاخضرار الساحلية القديمة التي غادرتها منذ ابد
طفولي لن يعود

لا ابتعدي رجاء ياتذكريات محزنة وقاسية الفرح مقبل
الآن وأنا فارس اللحظة

ورفعت النغمات لتطفي ويهمي النسيان ، أشرعت يدي في
هبة ربح مرحبتي وانا اعطف الشارع مسحت عمود كهرباء
بأصابعي المفتوحة ، ثم مرغتها على جسد غيضة ياسمين غافية فوق
سياج دار انيقة دخل الاخضرار مرة أخرى ، متسربا من رؤوس
اناملي واستوطنت القلب أفراح قديمة راحت تفيق في روابي النفس:
بحار خضر ، وجزر بعيدة منفية طحالبها خضراء ونوارسها تصيح
بصوت اخضر أطفال يلبسون ثيابا خضراء ، يمشون وراء نعش
مجلال بكفن اخضر في ذلك النعش توسد أب لم تكن ايامه
خضراء

لا لي للا

هل تستطيع ان تكون محايدا ؟ أنا أود ان اكون محايدا الآن .
انصب في لمعة الفرح الصغيرة المومضة ، وأسلمها تاج عمري . انني
أسير محايدا ، في غبطة من الزمن الصغير المدهش أعوم فوق
الارصفة ، فوق شر المدينة ادندن ، أثب ، أصافح الاوراق ،
وحديد الاعمدة ، وأراقب الفتيات لأول مرة بعبور لائتم فيه . وفي
هذه اللحظة المبرقة ، أشعر بمجد الحرية يخترم مسام نفسي
كل اللحظات لكم ، وهذه الهنيهة من الاسراء لي . انني ادعها
تتخلل كياني رامياً بينها وبين العالم سدا من النسيان واللامبالاة
المشروعة

سبحان من اسرى بنفسه من البؤس الى الجور على خيط من
الغفلة والسدر

الزمن مخدر الآن ، يستلقي في الخارج ، غافيا في مكان لا اعرفه
ربما كان في العطفة التالية وربما في المكان الذي أرنو اليه لكنه
طلع مني الآن كبرق حل في الاشياء أيا تم تتم تم
غرفة نائسة الضوء ، ستارتها حمراء ، وارضها مفروشة

بجلد طري ابيض ، وسرير واسع ، فرشت عليه بطانية مخططة
بالابيض والاحمر ، وامرأة ، وحلم ومنذ قديم الزمان يحدث
ذلك لست ذاكرأ متى ، ولا كيف ولماذا الاشياء تمشي خطوة ثم
توقف

نبحر في سفن منتقاة ، وفي عرض البحار ، تتصدع السفن ،
تسرب المياه ، ويشيل الهلع الغرفة تقترب وصوت المدفأة
يفرغر موسيقى كئيبة ، تصدح وداعا لرجل مسافر والمرأة
متكئة تمضغ دخانا وتتأمل الخيوط الدقيقة الرمادية التي
تتلاشى هو انعمرمضي هنا في غرفة سرية صامتة والكلمات
لايجهربها لرجل غريب نجهبصمت

عالمان أنا وهي بالاسرار ، والعطب الذي لايبوح ، وبيننا وبين
الزمن معاهدة وتوقيت لكن البوح يجيء متأخرا بعد ذوبان الصبوة .
بعد ان تصبح الكلمات كخلايا نحل هجرت

بثوبها الحريري الشفاف تستلقي ، مرفقها الابيض على الوسادة
البيضاء ، وراحة كفها تسند وجها في عذوبة المطر الصيفي
ليست حزينه ولا فرحة تعوم فوق سطوح العالم بقلبها الثلجي ،
ووحيدة تحلم بالفرح القليل

خزانة الثياب مفتوحة ، وحقائب الاشياء الصغيرة مبعثرة
تلمع تحت الضوء الخافت ، وكتب منتظمة صفحاتها لما تقطع

جسد مرمرى معجون بالحليب والدم ، داخل ثوب كشاف
رؤى ودخان ، ورجل مسافر ، ثم غريب ، وامرأة عذراء تنام طي

بكارتها النفسية

— أنت وحدك يابنية ؟

- أنا امرأة
- يقول الناس ذلك
- وأنت ؟
- لم أجرب بعد
- طويلا ستنتظر ، وعندما يبكي الحجر تجرب
- ثمة وقت
- تمضي العمر بالاحلام
- يقول الشرق والخوف ذلك
- أنا لا أخاف ما يخطر لي أفعله
- طفلة جميلة وكاذبة
- جبان .
- وأنت قطرة سيامية تنوء وتحلم بدفء الفرو
- الكلمات العذبة لا تطعم نساء « تضحك
- المرأة وطن منهوب
- تتقدم خطوة ثم ترتعش (تضحك اعلى)
- قبلك جرّبت نساء
- كيف رأيتهن ؟
- يعطين رجلا آخر
- أنت اناني تقطن داخل جلدك
- أريد امرأة تقبل بعد الشهوة
- أحلامك مريضة
- أريد امرأة مفامرة
- راوح مكانك

- لماذا تخافين الخيانة
- ولماذا اخون ؟.
- لان رجلا آخر يقطن جلدك
- أنت تخون ؟
- ومن الذي لا يخون
- ما طعم الخيانة ؟
- ثأر عذب مسكر فيه كشف وندم
- الرجال قدرون
- والنساء أظهر من زليخة والمجدلية
- لو ان الانسان لا ينمو
- لو ندخل بوابة الجحيم
- أنت رجل شقي .
- وانت امرأة سعيدة
- ملعونان نحن
- لندخل تحت عتبة اللعنة

ليس عدلا ان تنام في فراش رجل غائب، مع امرأة ماتزال
عذريتها النفسية مصانة ، غير ان الذهن يسبق ذلك وبين
الطرفين المدودين بصمت تحت غطاء خوف السنين ، وتخطي
اللحظة الشفافة ، يمتد وشج خائن يلمع كالومض ، ويحدث
الفعل وتسأل هذا القتال اللعين بين الذهن والفعل متى
ينتهي ؟

- اترحل معي ايها الرجل الغريب ؟
- ارحل .

- هلم -

ونهجر الناس والأطفال والأزواج الجرحى نمضي الى
البراري والجزر الوحشية نفعل ونفني ونبكي نحس زلزلة
الارض ودوارها تحتنا ، نصعد تلالا غضارية ونرتمي في وديان
سحيقة وعرة ، ننحشر معاً في مغاور قديمة عنكبها الزمن ثم
نصرح كالوحوش في مجد النشوة المشتعلة وبعدها نموت بلا
طقوس ولا حزن فوق أديم الارض

غير ان لمعان الاشياء المصنوعة باتقان هو التحول ، والغرف
التي تشبه الصناديق المقفلة تموض عن مغاور الجن الوحشية
المهجورة

هكذا حدثت اليقظة على خيط من السقوط المغفل ، وبدا
لمعان الأشياء المصنوعة وغرف الصناديق المقفلة أوشحة وهمية
للبكاية التي تمزقت في السر وبعيدا عن الرجال المسافرين
كانت الخيانة تنام بهدوء خال من الاثم صاح صوت الاب القاسي
من أنت ؟

أجبتها الرجل الغريب

أجاب ماذا تريد ؟

قلت أريدك أيتها المرأة الصغيرة

شالت عينا الزوج المعلقان في السقف انا لا اعرفك

قلت لها جئتك في الاحلام يوما

انعتقد غضب الاب في عينيها انت غريب !

همست لها انا رجل المسرات والصبوة الخائفة

صرخ الرجل المطعون في الظهر الفرح مسافر

قلت : انا الفرح !

نده الصوتان معا غادر غادر الغرباء لا يطؤون بيوت الرجال
المسافرين

- سلام ايتها المرأة الفاضلة

هو هناك في العطفة ، وفي كل عطفة ، في الرأس والرحم
مقبل ومدبر ، خارج من الارصفة ومن أعمدة الكهرباء ، من السقف
ومن الشرفات المعتمة سائر المطر ، ومفط وجه القمر بضبابه
غبارية

بيني وبينها جاثم على بوابة اللحظة ، كفارس قتيل يحيي
ظمينته بعد الموت ، قائم كجسد منحط لكن من الذي يتقدم
ليهزه ؟

عاد الي الآن وانا ما ازال اسير ، بعد أن انعطفت ملفوفا
داخل عباءة صمتي

اسمع صوت الخطوات فقط ورنين الصمت ، وأرى هراوة
الحارس الليلي تتأرجح على جنبه ، وهو يهز جسده الراغب في
النوم

وهاهي الحواجز الحجرية عادت تنتصب أشباحا من القسوة
والتحدي فوق جميع الارصفة جميع النوافذ مفلقة والريح
ما عادت تهب

سنفیر بافیر کرنتینا شملون ترللی النساء
والفضيلة ، النساء المكسوات جيدا بالاحذية والفساتين الزهرية ،
والفساتين تغطي البكارة بصناديق من اسمنت ،
وصناديق الاسمنت تمنع الخيانة ، والخيانة تتم بصمت ، والصمت
لا يبوَح ، والشرق حكاية دن الزيت المفلق وفي هذا الدن: شملون
جبل حفرة معطف شارع نبیذ لیل نحیب رقص
غبار وشهوات تحتضر مجرات ، وشموس تسقط في مستنقعات
الشرق ، وأنا وحید أسوح عبر العالم بذهن منحط ، أبحث عن شمس
حارة لا تسقط .

حميمود

بشرش شجرة التين البرية المنتصبة بين دغلات الديس ،
عقل حميمود بقرته منذ ثلاثة أعوام اعتاد ربط (جمورة) بالشرش
نفسه ، وقبلها ربط (عبدة) (وزيتونة) البقرتين اللتين ماتت
أحدهما مساء يوم قائظ على الطريق المؤدي للقرية ، ويومها
حزن حميمود بصمت وبكى ، غير أن البقرة استلقت فوق غبار
الطريق ، خارت بالآلام حادة وخرج من فمها رغاء أبيض كثيف ،
ثم ضربت باظلافها وركبها الأرض ضربات متلاحقة مهووسة
متشنجة وخمدت ويومها أيضا لم يعرف حميمود لماذا ماتت
(عبدة) البريئة

بعد عام سحب الرجل ولمدة عامين البقرة الأخرى ولكنها

بيعت فيما بعد لجزار من قرية مجاورة ، وبذلك تعلم حميمود
الفقدان وهجرة الصحاب

كانت البقرة الجديدة تعني لحميمود ما عنته الاختنان
الراحتان ، مجهود اليوم في الرعي والعناية وصداقة السهول
وكروم الزيتون سوى أن حمورة كانت أقل تعقلا واكثر تشهيا
لمروج الفستق الخضراء المتنامية على شريط الساحل

شدّ حميمود العقلة ومنتها خوفا من عصا علي ناعوس حارس
السهول والفاضب بلا سبب مذ تولى عرش الحماية والسطوة على
البراري الفساح

ومن رقبته حل حميمود جعبة طعامه القماشية ، جعبة داكسة
ملطخة بالزيت والفبار ثم نزع زوادته وفرشها في الظل فوق العشب
وقرفص كان الزاد مؤلفا من رغيفين من خليط الذرة
والقمح ، وحبات من الزيتون الاخضر مع بصاة يابسة ، وكرتين
من البطاطا المسلوقة

بنهم اكل حميمود غذاءه ، ثم سجد على حافة الساقية
المجاورة وغب من مائها الراكد حتى ارتوى مسح بكم معطفه
الاسود المهلهل فمه وذقنه النامية ، وعاد فعلق الجعبة بارومة
غصن مكسور ناتيء من شجرة التين

على بعد خطوات من التينة الناشبة بين العليق المهجور ،
المليء بالغيلان والآفات ، نهضت المغارة التي يستلقي الراعي في
فيئها الرطب . مغارة قديمة منسية من عصور لاتعرف بدايتها ،
بعضهم قال أنها وجدت منذ وجد الانسان ، وآخرون قالوا انها
من زمن الاسلام الاول ، وغالى البعض فقال انها موطىء قدم
البراق الشريف يوم بدأ الاسراء ، ونسجت حولها الاساطير
المخيفة ، غير ان الاحفاد عرفوا فيما بعد أن لصوصا ومهريين
سكنوها ، آوتهم من المطاردة حينما من الدهر ، وأنها

لاتعدو ان تكون كهفا نحت في الصخر تشكل بفعل عوامل الطبيعة، ومع الزمن. وتعاقب الاجيال سقطت تلك القداسة الخائفة التي حومت حولها ، فصار حميمود يفيء اليها في ظهيرات الايام الكاوية

على بوابتها استلقى كعادته فوق التراب الرطب الممهد ولصق الجدار رمى براسه فوق حجر مسطح ، فاحس غمرة من الامان والطمأنينة تسيل في جسده المعنى

كانت المغارة خباء من الصمت ينسدل فوق الجسد والنفس، وهنا كانت الاحلام والنساء المحرمات حلالا والوحدة ايضا

هومت عينا الرجل في السقف الكامد ، وتابعت عنكبوتها ابيض البطن اغبر القوادم يحبك نسيجا صمغيا ينحدر فوقه نحو البوابة ولا يصل ، ثم دار الحجر في الظلام العميق لهذا الكهف التابوتي فتسامق الظلام ثم انسد ، ونام حميمود

الى الشرق من مفارة (الشرشار) تقوم ضيعة حميمود تلة من البيوت والشجر والناس لم يكن ياوي اليها الا في الامسيات بعد ان يمضي يومه عبر السهول المجاورة للبحر او في الوديان وفي تلك الضيعة لم يكن ذلك الراعي اليتيم اكثر من ابله ، يعبر به البشر فلا يحسونه ، حتى التحية لم تكن تلقى عليه وكأنما هناك اتفاق سري ابرم بين الجميع على عزل هذا المخلوق الذي لايعرف كيف يرد السلام على الناس

وذات يوم أفتى شيوخ الضيعة محرمة عليه الصلاة فحرموه منها

وهكذا عاش واستمر بلا دين ، ولا قيمة ، كحجر مرمي قرب جدران أزقتهم الزنخة

ومع تعاقب الايام نسي حميمود الناس كان يراهم فقط

وهم يعبرون ، كما يرى الاشياء القائمة فوق سطح الارض
ثم مع الزمن اعتاد ان يكون وحيدا كقط بري

تميل الشمس عن سمتها فترمي اشعتها التعب فوق
السهول ، وترقص فضية براقية فوق مرايا البحر ،
ثم يبدأ هواء السهول فاترا حنونا ، وينار باب المغارة كاشفا
عن جثة ملفوفة بمعطف مرقع مثقوب ، ووجه متطاوّل حفره
التعب وحرثته سني الفقد وكراهية البشر. يحسر نور الشمس
ظلال الجسد بنصوع يزيد بروزه سواد المغارة الداخلى ،
واسرار آلاف السنين المخزنة في ممراتها الفارقة في العتمة
والصمت ، لكن سر المغارة ونفس حميمود تضيعان في زحمة الايام.
ويتململ الجسد تحت وطأة الضوء ، وترف عينا ميت قام على
مهل عيان حمراوان ضامرتا الاهداب يتشاءب بصوت وحشي
مبهم ثم يتمطى وبقفزة هررية مذعورة يصبح خارج باب المغارة
في يده عصا شذخت من شجرة زعرور يرنو نحو الغرب خائفا
من مفيب الشمس ، ثم يهز رأسه ويضحك ضحكته البلهاء المفلوجة
وبطرف العصا يلكز حمورة الجائية وهي تجتر ما مضفته
قبيل الظهيره

تلتفت البقرة بعينها الوحشيتين المضيئتين نحو راعيها
تتناقل ناهضة وبعد ان تنتصب فوق قوائمها ترسل خواراحزينا
يمزق الصمت والمدى ويردد صداه جوف المغارة الاخرس

يفك حميمود الرسن المعقود بالشرش ، وهو يتأمل هذه
الصديقة شغفا مغبطا وتنتصب قامته التي انحنت فتنفرس
في عين حمورته ومن مكان مستور تصاعد لهفة منكسرة تمتد
بين عينيه وعيني البقرة تتسع عيناه اكثر ، وقد تاهتا في
ما وراء بؤبؤ عينها ، وتتمطى اللهفة غورا في العين الطويلة
السوداء تصبح العين بحرا ، مدنا ، وقرى ، يخطر فيها امواج

من النساء الشهيات العصيات على الاخذ لكل امرأة اكثر من رجل ولكل رجل اكثر من امرأة. البشر الذين خرقوا المواثيق وتخطوا قسوة الشرائع ، انحرفوا نحو رغباتهم ، وتاهوا عن الله يسمرون ويضحكون ويتنهدون هاهم في حلقات العشيات في ساحة القرية وأمام الحوانيت ، يقفون ، او يجلسون على حجارة بيضاء ، شبابا وثنيتين مستهترين قرب نساء أرامل هجرهن الرجال الى ماوراء البحار والى المقابر، فبقين وحيدات تشب فيهن الرغائب وروائح الذكور الذين رحلوا فتيات عمرت صدورهن ، نضجن ، وفي النفس قام الوجد ، يضحكن عاليا فيرن الليل ، ويخفق الصدر المتلع مع الضحكات ، لكأن زمنا سحيقا نائما كانت فيه تلك الضحكات غافية تحت رماد الاستكانة هاهي الآن تستيقظ يسمع وهو يلطي في زاوية بيت مظلمة عازبا يقول لأرملة جسدك مزار أطوف حوله

تفقه كم انت غبي

— لو تدرين كم ركعت وابتهلتي من أجله

— ها ها ستموت الف مرة قبل ان تنال منه شعرة. ويصرخ رجل متزوج يحتسي خمرة في صحبة كل أرامل وفتيات الضيعة الشبهات يمتعض عازب محقون سم زعاف اشرب وازحف الى خيمة عجوزك !

ويسخر خاطب خبا خاتم خطوبته ديننا أفسح دين ، لو قيست به بقية الاديان لبدت مترمة اعطانا أربع زوجات

— ناهيك عن التسري

يردف عازب آخر مندلق الكرشي: بروحي المصطفى التقدمي. ويشيل صوت قادم يضع نظارة طبية بيضاء ياابناء سدوم الملعونة !

وما يزال حميمود محققا في عين البقرة العين الوحشية
الوحيدة حيث يرقد الناس والنسيان والرسالات القديمة ، ثم
هذا الابله المتقن للرعي والنوم في مغاور الظلام والصمت ، واحلام
الجنس المحرمة

هذه البقرة حميمة الى نفسه ، يحس ذلك فيعانقها ، يحاول
ان يتحدث اليها فيشعر انه عبي وتتشعر الكلمات من فمه
صوت حيواني باهت يخرج ، تبلعه البراري ويمتصه الفضاء
الزعراني

فقط وفي الاعماق المسدودة تختلج دممة ، يحس حميمود
انه يفهم ، لكن البقرة والناس حجارة ، حتى الفلوات والمفارة
صارت مقبرة للتذكر المقتال

هوذا حميمود الانسان المعمر الراعي يخطر بين البشر، كفئران
الحقول العتيقة ، ينتصب على بوابة المغارة بعد ان سافر القتلة
وتناسلوا في طول الارض وعرضها ، ملؤوا المساحات حتى ضاقت
بهم الارض ناس ناس كالجراد ، كالنمل ،
يبحثون عن كل شيء عدا الانبياء ، بشر صادوا الفواية وصادتهم،
رغباتهم مطاياهم ، ذلك ماهو الآن ذلك ماهو الآن

ويجمجم فتخرج الكلمات صيئات بدائية فيهب رأسه يأسا،
بادئا مسيرة الرعي المسائية رسن حمورة في يده اليمنى وفي
اليسرى عصاه ، متقدما البقرة ، ميمما جهة السهول المبسوطة
على مدى النظر حيث تنفرش بيادر الفستق الاخضر مروجسا
تفصلها التخوم والسواقي الكثة الاعشاب

كانت سهول القرية تتمتع بذلك الاخضرار الدائم على مدى
الفصول ، ويشغل اخضرارها الغض اكثر في طلائع ايلول شهر
الرياح والرطوبة والاحزان

وبين تلك المروج المشلوحة على حوافي البحر كان حميمود

يسرح ببقرته ، ساهما مدى ساعات في البحر والسهول ، وعبر
خيام الفلاحين المتناثرة

الطريق الى قرية حميمود غباري مزروع بالحجارة المغمورة
بالغبار هي ايضاً ، وفوق الغبار ثمة آثار اقدام للناس والحيوانات .
على منكبي الطريق ينهض الزيتون المعمر ، اسود الجلدع ، مشقق
القشرة ، محدبا بنتوءات سنوية زيتونة قرب زيتونة قرب
اخرى ، قائمة كهيكل بشري محروق ، صامت ووحيد ، كشواهد
قبور من الدهر الاول ، وفوق الطريق ثمة سماء كدرة ، وفضاء
مغبر تهزه الريح

ويخب حميمود بخفه الدهري الواسع المشروح في حزن المساء ،
محنيا فوق غبار الدرب والبقرة تتهاون خلفه على الدرب يترك
هو الآخر علامات ، ويتحدب الدرب ويلتوي ثم يصاعد نحو القمة
ورجل التاريخ يتلفع معطفه المثقوب وكوفيته الرمادية المحسورة
عن جبهته تتعرق قطرات تسيل من الناصية نحو شعرات
الدقن ثم تتمهل ، ثم تنحدر بسرعة خاطفة على وجه الغبار

ايقاع للقدم ثم صمت رفرقات للعين المرمدة ابداً ثم صمت
قائمة مقوسة بالقهر والنسيان والصبر ، ثم لاشيء البتة

الطريق يمتد سابحا بين الزيتون والظلمة وشجر الصبار ،
والبقرة قد شبعت والشمس فوق خط البحر الافقي برتقالة
تزداد احمرارا ، وفي الخلف والمقدمة الفلاحون المتعبون ، ثم
حميمود والزمن الهارب

الآن قبل الآن وبعده ، من يذكر ؟ ماقيمة التاريخ الذي مضى
ولم يعط الكفاية للناس ولم يخرق سديم الملايين الففل اكتفى
بقيادتها زمنا ثم غار

لماذا لا يستطيع الانسان ان يتذكر الولادة ثم الموت ثم الحشر
ثم البعث ؟

واحد اثنان ثلاثة اربعة : .والخف العريض المشروط
يرسم علامة. وفيما مضى كان هو الآخر علامة جيل تلاه جيل
سل اجيالا والصمت لا يتكلم ولا يلج اشارة المطلق ، لا يقول شيئا.

وكان الرجل المنسي سيد قومه في غابرات الحقب ، طلع
من ضمير الصحراء عشية ليل وثني كان يتيما كما هو الآن
وكان يحب الرعي رعى البهم ورعى البشر ، وكان يعشق الوحدة
والنساء ، ولم يكن غبيا امتص زمنه وارتنى متن رغباته ،
كان يحيا ويبرر ويعرف جيدا ماتريده تلك النفس المتطلعة ،
النفس الملهبة ، وعلى مر الزمن صار حكاية ثم مجدا وغاب

في ضمير الازمنة اسرى البشر وعرجوا ، ضلوا وادركوا ،
قامت حروب واحرقت مدن طاف من طاف بالاضرحة، ورش
البخور فوق القتلى ، وها هو جيل يحب النساء والوحدة والحزن
ويكره السجود يولد »

كضباة معتمة يجيء هذا الادراك القديم ، يجتاح غياة حميمود،
تصدمه بعدها رعشة خوف من شخص كان غائبا هوذا يحضر الآن.
تنسد المنافذ ويقع مغشيا عليه ، وتختفي الضباة

عندما يسقط ويعبر به الآخرون ، كانوا يهزؤون منه ، يركلونه
باقدامهم ويصفعونه كيما يفيق من نوبته

وفي ضحى يوم قانظ داهم حميمود التذكر ، جاءه كسباة
هادئة من غيب قصي ، لفت أمام عينيه وراحت تدور
ارتعش البدن العتيق واجفا وثقلت الاجفان ثم دارت العينان
الراس طار ثم انفتح عبر الفضاء السحابي ، ودخل النفس

عبر الماضي فتحت الممرات الدامسة

علامات تمر خفقا ، وتلال الرمل والمضارب تعبرك اشارات
هلامية وامضة هودج النساء تبدو ويخرج منها فرسان
يضربون اعناق بعضهم البعض والرجال يضرمون
النار في المضارب والاطفال ، القتل ونواح الصلوات يغطي
الصحارى ، ومواكب الحريم تمشي في الفضاء عارية ومجلفة ثم
الفضاء الاصم ولا شيء غير الظلام

وتفلت حمورة نحو المروج الطرية تنحني قامتها دافنة
راسها عبر الحشائش ثم تروح تلتهم بنهم اوراق
الفستق المحرمة ، بينما يهوي فارس المراعي نحو الارض
على التخم يرتمي وتمدد اطرافه براحة ، وحمورة توغل في غياض
الخضرة ، والسماء مضيئة وقاسية ، ويبدأ البدن يرتعش اكثر ثم
يزفر الفم زفرات صغيرة متقطعة ، وتحرك القدمان ثم تتشنجا ،
ويتعالى الزفير محدثا صوت حشرجة لحيوان غريب ، الحجاب
يرتفع وينخفض وتخرج رغبة تبدأ تفرغر على حوافي الفم ويتواصل
الانين الوحشي

من بعيد جاء صوت الحارس متوعدا خرق الفراغ
والسهول جفلت حمورة فرفعت راسها واشربت اذناها.
توقفت عن قضم الحشيش وحول عينيها المفتوحتين بتوجس
راحت ذبابة زرقاء تطن

— ايها الكلب وقعت قال الناطور القاسي

واقترب ملوحا بعصاه السندية حتى أشرف على
الجثة

— جاءتك النوبة هاه هذه حجتك لتسبع حمورة .

خذ اذن وانها لبعصاه فوق بطنه وفخذة وصدره

ان الحيوان متاوها

— من الذي ينجيك من يدي يا لعين يا داشرباراضي
الناس

تحت الضربات كان البدن المخدر يتلوى ويتمرغ ، والصوت
الوحشي يزداد حدة ، والحارس يضرب بتلقائية لثيمة بحمي
مسمورة تهوي عصا الحارس فوق الراس المعفر بالوحل
والحشائش ضربتان وتتجمد الثالثة في الفراغ ينفجر فم
علي ناعوس وهو يرى انفصاد الدم من الجمجمة ويتمم
بخوف مات . مات حميمود

تلك كانت بداية رحلة الراحة للذي فقد ذاكرته وبقي
له الحس تعطلت النفس يا حميمود وبقيت شاهد الصمت
الاعظم لكن نبوءة الحارس تحققت على نحو آخر من
الموت

بدون الراعي راح الناس في القرية يؤدون طقوسهم
لا أحد يذكر ، أو يهتم ، والنفس المقفلة نسيت حالتها السابقة
والشر راح في البشر حتى يوم الغفلة

الشيخ يؤدون صلواتهم الخمس الاعتيادية فرادى
وجماعات على طريقتهم الخاصة في البراري والبيوت ،
يذكرون بالقيامة والحشر والعقاب ويرثون الاملاك ، ومن
اموال الزكاة يشترون الاراضي ويعمرون البيوت ويتزوجون
الصبايا النضرات بينما فقر العامة ماض ، وتحت ستر الاستار
يسكن النسيان والنبوة ، التسبيح لا ينقطع وحميمود ابله الزمن
الحاضر يهز رأسه ويضحك ولا يقيم الصلاة على الارض نفسها
مع الفقر والصلاة ، تشب اجيال الفتية ، بين الحارات والحوائيت

في الليل الاسود هي الاخرى ايضا تصلي صلواتها الخاصة
للجنس والحزن والرغبات المسدودة ، لامبالية بأفواه الشيوخ
الفبية وهي ترتل اخدار السنين

الطريق يمتد وما زال الايقاع هو هو

الجسد المنحني تحت المعطف الرث ، الذقن الطويلة الشعر ،
الاهتزاز وضحكة الבלه ترين على السحنة الحشرية ويسمع
حميمود اغنية صبية عاشقة تعبر الدرب فرحة تقول

في الساحة لي عشيق

وموعدنا الليل

الحزن وشاح الذي صار وحيدا

والقلب ينفطر ولعا

الى مغارة الشرشار

يخطفني حبيبي ،

الا ما اقوى ذراعيه وهو يضمني

الى صدره

والدرب غباري وطويل ، عليه يمر الفلاحون المتعبون المحبون
للصلاة ، والخائفون من عقاب الله ، وخلفهم هذا الابله المأفون
الفاقد لذاكرته النبوية

من تراه يذكر من تراه يصدق التاريخ لو ينطق مرة
واحدة بصدق في وجه البشر القاصرين عن التذكر ، والذين لا يؤمنون
بالمعجزات

— لماذا العقاب بل لماذا الشر ؟

ما الذي يحدث لو ان حميمود خرق الغياب وعادت الذاكرة .

لو انه وقف يوما على هذه التلة القائمة في مشارف القرية معلنا
المعجزة

أيها الناس أنا هو تاريخكم السحيق ، وانني لعائد اليكم
مبشرا ونذيرا ! »

وتخفق ريح واهنة أصيلية ، فيتحرك الشجر المبارك حركات
حزينة ، ثم تخور البقرة

يقول شيخ مسن لزوجته الصبية انني خائف يا امرأة
تقول الزوجة ولم الخوف ؟

يرد الشيخ حلم غريب مفزع طاردني طوال الليل

رايت رجلا طويلا يلبس جبة خضراء على رأسه عمامة خضراء
فوق فرس خضراء وفي يده رمح أخضر يعبر حقولنا الخضراء
فيحرقها بطرف رمحه

- ثم ؟

- ثم رأيته يهذب فرسه فوق النار باتجاه الشرق ضرب
الزيتون فأحرقه أيضا تواصلت نيران السهول بنيران السفوح ،
وماجت النار فكسف الدخان البحر والسماء ، وصار الفضاء نارا.

- وقانا الله ثم ؟

- ثم اخترق النار على ظهر الفرس العاري وبيده الرمح الأخضر
والفرس تجمز كالريح حتى وصل القرية وسمعت صوته مجلجلا
كرعد السماء يا قوم جاءكم الحصاد انا منجل الله وهذا رمحي
علامة

وتأوهت الزوجة وكأنها تموت قنا يارب التهلكة ايه ؟

- احتصد من النفوس ما احتصد دمر المنازل ، وهدم المعابد ،
وراح رمحه يخترق الصدور والجدران ويضرم اللهيب أحرق

القرية بناسها وبيوتها وشجرها وسمعت صوته السماوي يقول
قاتلوا الانبياء صلواتهم كاذبة وابناؤهم غير شرعيين يرثون
الارض بغير حق ثم رأيت يطيح فوق النار على ظهر الفرس وبيده
الرمح وغاب

— ولم يبق في القرية صافر نار ؟

— نجا ذلك الراعي الابله الذي لادين له ولا امرأة

— ويحي ابحرق الشيوخ والقديسون ويبقى الاشرار ؟
يارب سترك !

تلفع الشيخ بعباءته وخرج نادته المرأة الى اين ؟

— لتقيم الفرض تكفيرا ونكشف على الحقول والناس

— لكنه كابوس

— من يدري

وفي زاوية مجاورة يتكور فتى أسمر ملهوف في انتظار خروج
الشيخ

وفوق القرية والطريق والغبار يرسو المساء ، فيبدو الفضاء
الارمد واولى النجمات تتلألأ في الغرب يحس حميمود بالضنى ،
وبحفنات التراب والحصى الصغيرة تدخل حذاءه وتقرص اصابع
قدميه بصعوبة يرى فيجلس على صخرة يمين السدرب ويحدق
في الظلام الصامت

صمت يمتطي صمتا يدخل في صمت عبر ظلام لا بداية له ولا
نهاية ، والابله هنا مرتم فوق حجر منسي ، هذا المنسل عبر الزمن
من سلاسل الانبياء القدامى الذين ظللتهم الغمامة . قاد حروبا وشرع
انظمة وقوانين وقيما كان فحلا يملك أكثر من امرأة شهية وصغيرة ،
وكانت له أحاديث تناقلتها الاجيال . يتيم الزمن المنبوذ هذا لماذا هو
الآن وحيد بلا رغبات يعبر به البشر ولا تحية في الاصباحات

والعشايا والعالم مستمر والصمت لا ينخرق، وصربات علي ناعوس
اللثيمة ما تزال تدوي في جدران الجمجمة والشيوخ لا يعترفون
بالتقص الغيبي وعودة الروح ، خوفا من الصحوه وعقاب الخمر
والزكاة وامتلاك الاراضي والزنى المشروع

ويقول الفتى لزوجة الشيخ كم انت لذيدة

تأوه انا لك خذني

ويأخذها

- لكنك صبية فلماذا تزوجته ؟

- آه أيضا !!

- يا لك من امرأة مسعورة

- هيا يا مهري هيا

- وزوجك ؟

- حافل اهابه بالسجود والترتيل لله والمال

- لو رأنا ؟

- يكذب عينيه

تلك هي السلالة التي وصلت واستراحت

في بقعة ما من الظلام ناحت البقرة بخوار حزين فزع ، فتنبه
حميمود من غفلته وصمته قام وقادها

كان الآن على مشارف القرية بعد لحظات سوف يلج الازقة
المعتمة ، يربط البقرة بوتدها الملوث بالروث تعطيها المرأة التي
يرعى لها بعض الخبز والزيتون والبصل فيأكل عشاءه على حجر في
عرصة الدار الفسيحة ، يشرب ويتمتم كلمات لا معنى لها ، ثم
تفرش له حصيرا وفراشا من أغلفة العرائيس ومخدة من قش
البرغل . سوف يستلقي تحت الدالية يرى من خلل فتحاتها النجوم

والسماء والصمت وسيحلم بامرأة شهية وصغيرة ، واخرى كبيرة
تنام معه في فراشه تلامسه وتسري فيه الدفء ورائحة توق الجنس
الانساني لكن كل شيء يجري عبر مجراه المنحرف ، وعبر خرق
الشياب وخرق الايام المتماثلة

وتظل حمورة والسهول ، اليقظة الدائمة في صباحات جميع
الايام ، ويظل هو الشيء الذي كان يمكن الا يكون لا في الزمن السالف
ولا في الزمن الحاضر وفي الزمن القادم لا أحد ينتظره

حالة طلق

عبر البراري كان النهر يجري وكانت هناك امرأة تتوجع
وقال الصياد ياله من يوم قاتم ، حافل بالصيد ، لابد
وفي غرفة نائسة الضوء ، دافئة ، راحت امرأة تتعري
وقال القس في كنيسة مجاورة طقوس الحياة الآب والابن
والروح القدس الهبوط ، ثم الصعود ، فالسكتة
بقدره ذاتية متولدة منه ، كان النهر يجري بين القصب والشيخ .
وبين القصب والشيخ راح البط يرعى وكان هناك طمي
فرح كولادة طفل ، هب على روح الصياد وهو يتصور أسراب
البط تعبر النهر
- باسم الآب والابن والروح القدس أعمدك .

ورشت عليها الماء المقدس ، بينما كان الطلق قد بدا

في الغرفة الوردية النائسة ، بدت المرأة تمثالا من المرمر المرصع بالعقيق وعلى الفراش تلملم وجع شهوي اخترق ذرات جسد الرجل ، المنتظر هبوط المرأة

— انما نبلوكم لنرى عند الله اتقاكم

هو ذا اسماعيل يمتطي الدروب ، باتجاه براري الصيد في غبش الفجر ، ومعه كلبه واسماعيل صياد قديم ، من سلالة تحترف القتل مذ نبتت على سطح الارض واسماعيل رجل يؤمن بالله أيضا في ساعات الضيق ، لكنه يؤمن بالصيد أكثر

قبل ان يخرج من بيته ، حلم بصيد وافر ببط يسد منافذ الافق بط ابيض واخضر وأسود ، يقبل فاردا أجنحته ، مقتربا ببطء حتى يصير على مرمى

الطلقة الاولى في المقدمة ، تتلوها أخرى ، ثم أخرى في الوسط والمؤخرة جنون من الطلقات ويتكوم البط القليل والجريح قربه فوق الطمي

طقوس

وبفنج مهتوك تنفتل المرأة العارية امام المرأة

هي أيضا في لحظة مواجهة ذاتية ، في لحظة متولدة نارا كطاقة النهر ، والرجل الذي يتوقع هبوطها يضغط بحنق الفراش والوسادة .
— المرأة اله وافعى في جسد واحد قال الذي يشتعل شوقا وحقدا

— ماذا سنسميه ؟

تساءلت النسوة في الغرفة المجاورة

كانت الام التي تتمخض تعض اصابعها والوسادة . تنشج

جنسا مرفوضا والالم يرشق ضلوعها بطعنات كالمدي
ومن كنيسة مجاورة ، راحت الترانيل تدوي كأزيز نحل في
جرار مقفلة

— اسماعيل

الى ضفة النهر سبق الكلب اشتم رائحة البط فعدا
صرخ اسماعيل بالكلب فالتفت نحوه ثم وثب الى الدغل
من كتفه نزع بندقيته وراح يجري في السفح فوق العشب
الفض كان يدوس العشب المندي ، وفي أنفه رائحة البط
والطاقة الذاتية المتولدة من حمى الصيد

هو الآخر يواقع رغباته بطقوس رجل متوحد

الصيد عذب

الطفل عذب

والمرأة التي تعرت الآن أكثر عذوبة

جميع الاشياء الغافية تحت جناح التوقع عذبة ، ما دام الفجر
لما يطلع بعد

طقوس عذبة

قبل ان يصل اسماعيل الدغل ، نفر البط سمع صوته وخفق
أجنحته ، فخفق قلبه بعذوبة واذا سمع عواء الكلب وصوت
خشيش الدغل بعيدا عنه ، شتم الكلب المهتاج ، ودهمه امتعاض
وحقد

— البط يرحل

— ثمة بط آخر لا حصر له قالت رغائب اسماعيل التي
تتوالد كتيار النهر

الآن دخل بين أجنحة الدغل

واقتربت المرأة العارية من الفراش
وازداد طلق التي تتمخض جنسا مرفوضا جنسا كريها كعلق
المستنقعات

الرغبة فصمت شفتها السفلى عن العليا ، فبدت مهدلة تحتبس
بشهوة لها رائحة ، وراحت كل ذرة من الجسد المخملي تنبض
ترتعش بالتوقع

ايقاعات طقسية ، يتخللها برق
الرجل المستلقي على الفراش ، عار هو الآخر ممدد كارض
تستهي مطراً والدنيا صيف

عيناه مذ بدأ التعري تجوبان خريطة التمثال ترتفعان
تنحدران. تجتاحان وفجأة تتسمران في وادي الفعل والطاقة.

وكما رأى اسماعيل اسراب البط تسد الافق بط ابيض
واخضر واسود بط يأتي من بحار مجهولة فرحة ، حاملا ريحا
من فرح ، رأى الرجل المستلقي وهو يسبل جفنيه ، وطنا من
فرح يقبل محمولا على غمام من شهوة ، حريريا دافئا

واذ دخل سفوح المرج الحريري العبق ، سحرته الروائح
روائح ليس يدري من اين انتشرت. كيف نفذت من الجلد المخملي،
من تحت الابط ، من ساحة ما بين الشديين ، ومسيل الفخذين.

هو ينساب سابحا يتمرغ مغمفا بالروائح وشهوة القتل
يقيم طقوسا في هذا الفسق السحري. متوحدا يود ان يطلق هو
الآخر .

الحلم الافريقي كيف حضر الآن قطع كل تلك المسافات من
اسمرة الى دمشق ولم تعقه ذرات الفراغ جاهدًا يحاول
اسماعيل أن يتذكر. حتى التفاصيل الصغيرة للحوادث والجسد
الابنوسي ، ينبغي الا تفلت

بيت منفرد بين الادغال. بعيد عن المدينة المرأة تقود السيارة
وهو بجانبها غريب ومتوقع ، والراديو يرسل موسيقى جنسية
عذبة ، والبراري موحشة تفيض توقعا. البط يهجع تحت ذوائب
العشب في الظلال المستورة والرجل مأخوذ في الخلف
اسمرة. مدينة افريقية الجنس يشم فيها كالريح ، يؤكل كالارغفة
لكن هذه المرأة شيء خاص مختلف ليست خلاسية ولا بيضاء ،
تشم روائح الغرباء، تميزهم، ثم تنفرد بهم في منزلها الوحشي ،
المعزول

موسيقى وسكي ابتسامة ساحرة ، وعينان مومضتان
ببريق يرتعش حافية تخطر فوق أرض البيت المرصوفة
بالخشب والدنيا غسق هي غسق ، ورائحة الصندل تعبق
في الحجرة ، تكاد ترشح من الجدران والارض والسرير ثم
التوقع

طقوس

— سجل لي اغنية خذها معك الى دمشق

وأدار المسجلة وسقته من كأسها من الحافة التي تحتسي
منها أحسن طعم الريق فارتفع مد الخفقان الداخلي ، وقسمت
موزة ناولته النصف، وتناولت النصف الآخر بهدوء مضغ وهو
يتملى البريق المشع من غسق عينيها كانت شفتاها تلمعان
كموجة في فجر مشمس ، ولم تكن تضع طلاء واذا لفت ساقا
فوق أخرى ، انحسر الثوب ، فانتشر بعري الفخذين وهج من جسد
صلب ، حار ، ناعم ومتوحش .

وراحت تغني أغنية افريقية راشحة بالجنس

اه انقطعت في منتصفها ، وكزت التي ستضع ساحقة
اسنان فكها ، ثم نثرت رأسها فارتطم بجدار السرير الخلفي ،
وراح العرق يتفصد من كل جسدها ، وارتفع الطلق
صاحت القابلة أعطوني وعاء

جو الغرفة يفيض قتامة ، والهواء منهك . والمرأة المفتوحة
الساقين ، تئن أئينا حجريا يخرق الجدران والابواب الموصدة
وعلى المنضدة كانت هناك مشارط ، واقمطة ، وأوعية نحاسية ،
أدوية وأكفان بيضاء

اسماعيل أم عيسى ؟

من الذي قال لآبيه يا أبت أني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس
القمر رأيتهم لي ساجدين ؟

— يوسف بن يعقوب

وازدادت التراويل الكنسية في صباح ذلك الاحد

توغل اسماعيل بين القصب والشيخ كانت الارض طرية
دبكة تحت قدميه ، أحسها تختلج كالبيض النيء غب انحسار
النهر وبصعوبة راح يسحب قدميه فوق الطمي . وجاءه نباح
الكلب من بعيد فناده أرعشه صفير أفعى داسها فانسربت بين
الشيخ وعلى نحو لامع مرقت في ذهنه كلمة آبيه الحية امرأة
غضب الله عليها فمسحها أفعى . ومن أجمة وثب ثعلب ، أحدث جريه
صوتا أجش موحشا شيء ما في الداخل بدأ يختل ، وراح
البط ينفر مدعورا من أماكن قريبة منه ، ومن بعيد حيث يجري
الكلب ، ولا يراه

الفجر اللعين متى يطلع ؟

وفجاء رعب البراري هذه الوحشة لليل جهم ممتد بلا
حدود ثم هذا الركام من الغيم الكالح والرد

خلفه كان القصب والشيخ ، ممتدا كهذا الليل ، وامامه كان
القصب والشيخ ، منتصبا كالاذرع الآدمية كثيفا راح يلطم وجهه
صدره يعرقل سيره والارض تهتز ولما يطلق طلقة بعد

- متى تسافر ؟

- صباحا

- لن تعود الى أسمره ؟

- قد يمضي زمن طويل قبل ذلك

واشعلت له لفافة مصت منها ثم ناولته ، وابتسمت بخبث.

- أسمعني أغنيتي

وإدار المسجلة

وسقته من كأسها ، وشربت وبدأت الغرفة عائمة بالدخان
ورائحة الصندل والجنس

دوار رجل وامرأة غريبان في عالم غريب ، في غرفة معزولة ،
وأغنية جنسية ، وبين العينين جسر من وجع وحزن

- هل عرفت امرأة قبلي ؟

وسألها ان كانت قد قرأت فرويد فأجابت بالنفي . وسألها عن
طفولتها فصمت ، وصمت

- لماذا تكثر من الاسئلة ؟

واستطردت أنت رجل سياسي

ورنا اليها بتركيز ورسوخ ولم يجب

- ولك مهمة في أسمره

— نخبك

ورفع كأسه . احتسى على مهل بينما افرغت كأسها . وقبلها .

— مهمتي أن انام معك

وضحك بفزارة

— قبل الفجر سيأتي رجل وياخذك معه

بطيف ابتسامة مسح كابتها لا تبتئسي أنا سائح ولا صلة
لي بمثل تلك الامور

— الغرباء هنا مشبوهون وأنا مكلفة بتسليمك

ومد لها ذراعه دعينا نرقص وقاما

موسيقى غابية مشحونة بالمطر والحزن ، شالت والتحما
فوق أرض الفرفة . بحنان شهوي ضمها أفغمته رائحتها رائحة
انثى حارة تلتحم بجسده داخل ليل موحش ، في بيت وراء
تخوم المدينة
طقوس

حلم يقظة وبين الحلم واليقظة خيط شفاف يحس ولا
يرى له رائحة كالموت أحيانا ، كالجنس ، كولادة شيء من تحت
جلد الانسان أو جلد الارض

الافق يلمع ثم الرعد طبول افريقية متوحشة داخل غابة
مظلمة ، موحشة هي الاخرى

دوار الغرفة تدور والموسيقى والروائح شفة ابنوسية
حارة التصقت بشفتيه ضغطت ضغطت أيضا

— أخي ضابط في الجيش الاثيوبي

وانهمرا على السرير

غنت القبضة أنا ريح شرقية قادمة من وطن الحب والموت
أخترق النفس والجسد أنشر الروائح ثم لا أكون .

ومن سماء تجيش بالغضب ، انهمر المطر مطر محمل بغبارله
رائحة الغرين وعلى اسماعيل هبت ريح مشبعة بفزع

أحس من لطم القصب والشيخ ، والريح والمطر ، بأنه على
وشك العمى ، وأنه في تيه وسط عالم موحش وبدأ جسده
يرتعش .

موسيقى الحجرة حزينة جنسية والمرأة المتألقة جنسا
مقبولا ، راحت تتأوه ، مختلجة بايقاعات جسد يخترقه برق
كان الفضاء مضمخا بالروائح .

طقوس أخرى ، واهتز أكثر نواس الزمن
ارتفع الطلق وصاحت التي تتمخض جنسا مرفوضا صيحتها
الآخرة ، ثم دخلت الفيوبة

واستعدت القابلة

وارتفع الشيخ الكنسي وسط رهبة الفجر
وثبة تلتها أخرى هاربا من عنكبوت الشيخ والقصب
هاربا من المطر والريح وصوت الرعد

واحتضنه الطمي

اسماعيل اني ارى في المنام اني اذبحك !

ورفع قلما ففاصت الأخرى أكثر بعنف رفع الأخرى لكن
الثانية غارت غارت حاول الاتكاء على البندقية ففاغت في
رخم الطين

الطمي الخادع الطمي القدر

وبداً طلق آخر شد بقامته بكل طاقة الانسان ورفضه
 للموت ، ونهد الى الاعلى سحب قدما رماها الى الامام ، وحاول
 سحب الاخرى طمي آخر ابتلع الاولى ثم ابتلع الثانية
 صيد بط مد الافق يخفق فوق رأسه صوته يدوي
 وشال بعزم بضراوة وحش محاصر رافعا رأسه نادها : يا الهي .
 وسمع صرير قدميه وهما تغوران اسماعيل أين قوتك ؟
 ورفع صدره ناهدا نحو الاعلى فمال ، اختل ، ثم كبا فوق
 الطين وعلقت يده غاصتا خائتاه يا الهي
 - من التراب والى التراب تعود

وعلى مهل راح الطين يمتصه وصل الركبتين اختلج شد
 الى الخلف وراحت يده تنسحبان ببطء من دبق الطمي سقط
 على قفاه منكسرا وهو مشبوح على ظهره نده أيضا : يا الهي
 أين أنت ؟
 وقام

كان الآن واقفا كالصقر وسط الطمي الذي غطى أعضائه
 التناسلية وشعر بصقيع الفرين يخترق روحه ثم يسكن في
 اللوتين وبهدوء وسلام راح يغور وسط ظلام العالم راح يغور
 شارف الطمي عينيه المتجمدتين ، ولم يكن سعيداً ولا فرحاً
 كان منها مستسلماً وراى السماء تصحو وراى القمر والنجوم .
 احد عشر كوكبا اثنا عشر كواكب مباركة ، تسبح في فضاء
 نبلي فسيح وكان هناك ، بعيداً بعيداً ربه الذي ناداه
 من بعيد جاءه زقو البط ، فرحاً مدعوراً ، كرقو الطفل الذي
 هبط الآن من رحم المرأة ، كالايلاج الذي تم الآن بين جسد المرأة
 والفرح ، وجسد الرجل الذي سيسلم في الفجر
 وغمر الطمي العينين ، فأغفى

العكر

« غيلان الدمشقي أحد فلاسفة المعتزلة
الاولائل . قال بفكرة الحرية والاختيار معارضا
فكرة القضاء والقدر .

هاجم ظلم الامويين وثراءهم على حساب
الشعب فحقنوا عليه . ولاء الخليفة العادل
عمر بن عبد العزيز شؤون المسلمين فنأدى
فقراء الناس : « تعالوا الى متاع الخونة الى
متاع الظلمة » .

وراح يوزع خزائن الامويين عليهم . في خلافة
هشام بن عبد الملك قطعت يدا ورجلا غيلان بأمر
من الخليفة لكن غيلان استمر يهاجم ظلم وثراء
الامويين قائلا فيهم : « قاتلهم الله . كم من حق
اماتوه ، وكم من باطل قد أحيوه ، وكم من ذليل
في دين الله أعزوه ، وكم من عزيز في دين الله
اذلوه » . فوصل الكلام الخليفة فارسل اليه
من قطع لسانه فمات فكان أول شهيد معتزل » .

وقال الجد لحفيده الطفل وخاطب الوالي الشاعر الفتى
بيدك حملت كتاب قتلك أيها الشاعر ثم تلا عليه الكتاب الذي
حمله من الملك وطلب منه أن يختار ميته

وتروي السيرة يابني أن الشاعر الفتى طلب أن يؤتى له برق
من الخمر وأن يحبس في غرفة حتى الصباح وجاؤوه برق من
الخمر وحبسوه في غرفة معزولة وأرتجوها عليه
وسأل الطفل جده لاهفا وهل قتل الوالي الشاعر الفتى
يا جدي ؟

قال الجد متابعا في منتصف الليل بعد أن هجع القوم ،
فصد الفتى شريانه وراح يحتسي من الرق وهو يتأمل دمه النازف
ويقول الشعر حتى مات

ولما أصبح الصباح أرسل الوالي يطلب الشاعر فوجدوه ممددا
بين دمه وخمر الرق المسفوحين على الارض وقرؤوا على جدار
الغرفة أبياتا من الشعر كتبها الشاعر بدمه غضب الوالي من
الامر وطلب أن يؤتى بالشاعر الميت وأمر جلاديه أن ينفذوا فيه حكم
الاعدام ميتا ثم يعلقوا جثته على ابواب المدينة

بحزن سأل الطفل جده ولكن ألم تقل لي يا جدي بأن الله
أوصى الانسان رحمة بأخيه الانسان ؟

تنهد الجد العجوز متعبا أجل يابني أجل لكن الانسان ظالم
بطبعه وحقود يضيق بنور الحق حتى يصير كخرم الابرة ويمتد
بظلام الباطل حتى القروور والقتل

وصمت الجد مليا ثم قال ألم تسمع بأخبار غيلان الدمشقي
يا ولدي ؟

— ما أخبار غيلان يا جدي ؟

— تكفيك اليوم حكاية الشاعر هيا الى النوم وغدا أروي لك
خبر غيلان

في الصباح مات جد الطفل طاويا معه حكاية غيلان وسائر
الحكايا التي لم ترو ومنذ ذلك اليوم افتقد خلدون أنس الليالي .
من ريفنا القاسي نبت خلدون ، في قرية تشبه معظم القرى
الآخرى بيوت من طين وازقة عفنة وحوانيت ، فيها مدرسة
وجامع ومخفر للشرطة ، وفيها ناس

قبل أن ينمو خلدون ويترد من بيته والمدرسة ، كان طفلا
كسائر الاطفال لكنه بعد ذلك صار شيئا آخر غريبا ، حزينا ،
يروي كجده حكايا عما يراه ويسمعه في القرية

أم الطفل وأبوه على قيد الحياة ، كذلك بيته لكن خلدون
بعد أن مات جده طرد من البيت والمدرسة في يوم لاهب من أيام
حزيران ونما وحيدا ، بيته البراري والخرائب ، ودثاره الليل
والريح والوحشة العارية

نسجوا عنه قصصا غريبة ، وسموه القط المتوحش ، وقالوا
انه يسرق الكحل من العين ، وإذا ما انفرد بطفل لايرعوي ، عن مص
دمه .

فتحاشاه الاطفال خلدون ولد قدر لاتقربوه ونبذه الكبار
فازدادت غربته

قالوا ان روح جده تقمصته ، وان حكاياه القديمة تناسخت
في روحه الشريرة أينما حلّ ينشر الفضائح دونما خشية من الله
أو تقاليد الناس عن الشيوخ يحكي وعن المراهبين ، يهزأ من معلمي
المدرسة ورئيس المخفر ، وبجراة مراهق يتحدث عن الخيانات
الجنسية الأقوى هو الذي يسود في هذه الدنيا وللأقوى نهاية

يقول ولا يخاف .

ولو سألت ذلك الطفل الناضج ماذا تعني بالاقوى ؟ لفجأك
بجواب غريب : الذي يفاجيء وهو خائف
— من أين تعلمت هذه الحكم ؟
— من الدنيا أم المدارس

— ٢ —

ذات ليلة يستيقظ الطفل مذعورا في فراشه بين الحلم
واليقظة يرى رجلا عاري الصدر راكعا فوق امه وهو يلهث تنتابه
حالة رعب فيصيح بالرجل ما الذي تفعله بأمي ؟

مسرعتا ينتفض الرجل العاري يتناول عصا
سوداء وكئت على حائط طلي بالحوار ينهال بها فوق الصبي نصف
النائم في فراشه ، ونصف المستيقظ كلب ابن حرام خذ
هيا نجس خنزير هيا اخرج من بيتي .

باللحاف الوسخ يحاول الطفل ان يحتمي الضربات تهوي
كالمطارق ، يحسها تسلب روحه من بدنه فيتكوم كخرقة تستمر
الضربات من يد فقدت صوابها ، والطفل يئن ، ينده بصوت جريح ،
والرجل شبه العاري مايني يصيح هيا ماعاد لك خبز في بيتي

ويتململ الطفل موجعا

بعد أن تعيا يد الأب يقذف العصا يسحب الطفل من فراشه
ويجره فوق الارض وبركلة من قدمه يقذف به خارج البيت
القرية ظلام سكيئة وصمت والعالم في رأس خلدون
خدرود يدور ، وهو المنهور في أزقتها يسري نصف عار . شبه
غائب عن الوعي وفوق لحمه الغض بصمات العصا الابوية السوداء.

« الى أين ؟ »

ويمضي لا بيت بعد اليوم لا دفء لا آب لا أم
البراري والساحات صارت المأوى وفي تلك الليلة تمنقه الرعشة
والصقيع الليلي في عب شجرة

في قرية خلدون كان الناس يحبون ويضحكون ويخونون
يصلون ويسكرون بطمأنينة رضية تحت خيمة من أمان كل شيء
كان يجري بطاقة الاستمرار نسيان زمني اعتاد نفسه باسم
الله مجراها ومرساها

خلدون وحده كان مؤرقا لم يكن يضحك ولا يحب ولا يخون
ولا يصلي ولا يسكر من الجميع مزدري ، لكنه كالشمس كان
يرى الدنيا ويحكي كما تحكي الأشعة وكان يغني
في أعماق نفسه كان يحس بأنه شبيه غصن بتر عن شجرته ،
وإن نفوس الناس إذا قست أقطع من سيف مسنون

حاول أن يعمل حمالا وصبي مقهى وبائع عربة يد وأجير
مزارع ، وفي كل مرة كانت كراهية الناس تطارده أبوه يقول عنه :
انه سارق ويسطو على الاعراض والناس يشون : الذي طرده
أبوه والمدرسة سيء لا يؤتمن حتى الاطفال من رفاق المدرسة كانوا
يتحاشونه ويحرضون على ضربه واستمر الطفل كلما طرد من
عمل يبحث عن عمل آخر ، وعندما يشعر بتفاقم ضفينة القرية عليه ،
يهجرها زمنا باحثا عن عمل ، ثم لا يلبث أن يدفعه حنينه إليها
بينه وبين قريته أقام الزمن حبا خفيا يشبه عشق الطائر لعشه
الذي دهمت فراخه أفعى

في حر الشمس يحلو له أن يتكئ مختفيا وراء حائط يرنو
إلى اطفال المدرسة الخارجين بهرج يتأملهم إذ يتبددون في الساحة
صارخين كأرانب طال حبسها ينقسمون زمرا ، يلعبون الدحل
والاستغماية بغش مستور خفية يدخنون ، وعلى الأرض ترسم
الومض م - ١٢٩ -

بعض الزمر صورة الموجه. يتقدمون واحداً تلو آخر ويبولون عليها.
زمرة أخرى تفاضل عين الموجه خلف بناء المدرسة قائد الزمرة
تامبو يتقدم من الجدار يرسم شكلاً يوحى بجسد امرأة قسم من
الزمرة يراقب حركة الموجه والقسم الآخر يتقدم ، يعانق المرأة
بشغف يلتصق بها ويبدأ التأوه والهمس كل طفل يختار طفلته من
مدرسة البنات المجاورة ويجسدها في الصورة المرسومة هكذا
بالتناوب حتى يقرع الجرس فجأة تعود اليهم ملائكتهم وبكل
وقار الاطفال وهذوئهم ينتظمون في الصف

ويتذكر خلدون كيف طرده المدير ذات ظهيرة تامبو وشى
به : هو الذي اخترعها قال لنا انه تعلمها من ابيه يومها قرر
مجلس المعلمين طرد خلدون رجل مفسد في ثياب طفل

- ٣ -

ويكون الفضاء ساكناً صهد الشمس يطعن الرأس مثل
خنجر مسموم ، ومياه المستنقع راكدة ، على سطحها تسطع الشمس
كسيف بدوي سن للثأر. ومن الافق لاتأتي طيور غير هذه الخطاطيف
السود تنقض سافة المياه ، محاذية الطحلب ، وكرؤوس الرماح
تنشب في فضاء صحو

- خلدون امستيقظ انت ؟

- أجل يا جدي أجل

حكاية قديمة رواها الجد عن صياد خرج يصطاد الوحوش
فعاد خائباً في منتصف النهار التقى بمستنقع ضحل تؤمه
الخطاطيف الفرحة البريئة فراح يصيدها

وتمر الايام فتبدل احوال خلدون يصير الطفل اليق
البراري ، يحتش عشب القفر اذ يجوع ، ويصير الناس غرباء في
عينيه يغني ويروي حكايات ، وفي الليالي القمرية يسري باتجاه

البحر ، لكن حكاية الجد عن الصياد وغيلان الدمشقي تظل تؤرقه
وتتناهى في وعيه وأحلامه

في سهرات الصيف والشتاء يسمر الشباب في المقهى المطل
على البحر يحتسون الشاي والخمر ويثرثرون في كل أمور
الدنيا ، ويلعبون الورق ، وفي لحظات الملل يبحثون عن خلدون
ليرفه عنهم بحكاية

يسأله أحدهم وهو يبتسم يا الله هات يا خلدون آخر
فضيحة يتناول لفاقة يشعلها ويفب منها نفثا عميقا ، يبتلع
معظمه ويزفر ماتبقى في فراغ المقهى كان ياما كان يا شباب. ويبدأ
بسرده حادثة المعلم الذي فاجأه يعري تلميذته في حقل مزرعة
المدرسة

يمثل لهم كيف كان المعلم يرتعش وهو يتلفت خشية ان
يдахهم وجهه في لون الجمر وعيناه قد اتسعتا والتلميذة بين ذراعيه
تختليج كحمامة بين كفي عقاب

ومن أعماقه يضحك وهو يصف حركة أصابع المعلم تفك أزرار
سرواله ، وهو يراقبه لاطيا في زاوية السياج بين سنابل القمح
واذ يصل خلدون الى حالة التطويق والضم والتأوه ، وبداية
الانبطاح ، يشير بكلتا يديه وهو يطوق الفراغ هو ووه
ويهبط عليها كالجمال الهائج

وباستطراد ممتع يسأل خلدون الحضور ان كان احدهم قد
راى جملا هائجا ، واذا يجيبون بالنفي ، يسرد لهم كيف راى الجمال
الهائج في احدى رحلاته مع البدو عندما يحتاج الجمال يا شباب
تنطفيء الدنيا في عينيه فلا يرى غير فريسته عيناه تجحطان
وتحمران كجمرة نار كمجنون يعدو خلف عدوه فاما يصله او
ينفجر قهرا هكذا كان صاحبنا المعلم

— وصل بغيته يا خلدون ؟

بتجربته يدرك انه قد شدهم الآن ، وانهم سيطردونه بعد ان
تنتهي نشوة الاستماع ، فيبدأ معهم لعبة التعذيب يطيل الوصف
شارحا تقصف السنايل وصدى التأوهات ثم انتشاءه هو بالوضع
اللديد ويسألونه بضيق ايه وبعدها التذذت ؟ ويهز رأسه
ساخرا ثم ببرود يجيب هيه هو يأكل اللحم وأنا المرق ! يا حيف .
اذن انا لست خلدون

بعد نفث طويل من لغافته ، يشرح كيف وثب عن السياج
صارخا وهو يتبعد كالريح وي ويع هو هو وفي
غمضة عين يندس بين الاطفال مشيرا نحو حقل القمح

— كذاب —

يقولها تامبو من الشرفة يتوعده ويشب مختفيا في ازقة
القريسة

بعد أن تكون الحكاية قد افرغت شهواتهم ينهرونه تامبو
سيكسر رأسك يوما ياديوث هيا هيا كان أبوك محقا يوم
طردك

وفي أخريات الليل يتدحرج عبر الازقة ، مارا بما تبقى من
حوانيت القمار ، يتلصص من خصائصاتها ، مستمعا الى آخر
ايقاعات الكفر والشتائم ، رانيا الى الوجوه الصفرة الكظيمة وقد
احتقنت بالكراهية وسوء الحظ

على غير توقع يدوي صوت خلدون في أعماق الليل النائح
فوق الجميع بالاغنية الاثيرة الى قلبه

خاين يادهر ماعندك عدالي

حبيبي الكنت حبو صار عدالي

بعد ماكنت عنقودا عدالي

دبلت وكتر غصوني الهوا

واذ يشقّ باب الحانوت ، ويطل شبح صاحبه شاتما مهددا
يكون الطفل قد سلت نحو الوديان باتجاه كهفه

- ٤ -

يشعل الطفل عود ثقاب وهو بهم بالدخول ، ثم يشعل آخر
باحثا في جوانب الكهف عن عقرب او افعى يفتش سريره المكون
من اكباس خيش وخرق تحتها كومات من قش ، واذ يطمئن يستلقي
بوداعة في الظلام التام

قبل ان ينام يعبر على شاشة تداعياته شريط حياته حكايا
جده القديمة عن الشاعر الذي قتله الملك لانه هجاء ، وحكاية
المستنقع والشمس والصيد والخطاطيف في الاعماق تلون الحكاية
الاخيرة تصير هاجسه الدائم واذ يعجز عن تفسيرها يتأسى مدندنا
مقطع اغنية حزينة ، وفي صدره يشيل نحيب خافت مكنون لا يرتقي
نحو عينيه يظل هناك في الاعماق التي حجرها الاغتراب بعد حين
برسو خلدون في نوم عميق

قبل الفجر تظهر افعى سوداء تسمى نحو يديه تسبح
فوق قدميه متسللة تحت ثيابه ، ثم بهدوء ترتقي فخذه العاريين
وما بينهما يحس حراشفها للمساء تدغدغ لحمه ، ويشعر بزحفها
الذي وصل بطنه فصدره قرب الرقبة ينتصب نصفها رأسها
في مواجهة ارنبة انفه نائمة او تنفس وتكون النهاية ، فيتحول الى
حجر والافعى تربض فوقه ومضة وينسى الافعى فتبرق في
مساحة الظلام صور كالاطياف اطياف بشر وحيوانات وشجر
تمتزج مع كتابات قديمة لا يعرف قراءتها اشارات تشبه الطيور
التي وصفها جده تشبه الخطاطيف لكنها ليست هي تتناول ،
تستدير ، ترتفع ، تنخفض تصدر اصواتا مفجوعة كانما هي في
ضيق ، او انها تذببح بعد حين يراها تهوي في حفرة سوداء محدثة
وهي تقع اصواتا شديدة الخفوت الاصوات ليست اصوات
الخطاطيف . اصوات بشرية يسمع صداها داخل الحفرة . الدنيا

كانها في حالة حرب يتمى لو يستطيع ازاحة هذا الظلام الراسخ .
الظلام الضيق ليرى الاطياف تتنامى وتتغير والظلام عميق اطفال
وطفلات عرايا في اوضاع جنسية ليسوا اطفالا هم تارة طيور
وتارة حشرات صغيرة يطارد بعضها بعضا لاتلبث ان تنزوي وراء
تلع التراب . الناس فزعون والطيور أيضا من شيء ما غير مرئي وهو
مقيد لا يستطيع الحركة ولا الصراخ فجأة يرى كل شيء الناس
والحيوانات والطيور قد حشروا في مكان ضيق موحد يحاولون
الهرب لكن الوحل يشدهم فلا يقوون على الحركة يراوحون في
اماكنهم مصدرين اصواتا غريبة الافعى تصير في ضخامة شجرة
جميز قديمة تميل قليلا قليلا نحو الناس المحشورين واذ يصل
فمها المفتوح قرب رؤوسهم ينتفض خلدون

مذعورا ينهض يفتش الكهف بحثا عن الافعى فلا يلقى لها
اثرا فيتذكر

لم تكن هذه هي المرة الاولى التي تدهمه فيها مثل هذه
الكوابيس مع الزمن ألفها ، غير أن الافعى ظلت تخيفه

في الليالي التي تلت بدأ خلدون يتحاشى الكهف عرفته سطوح
البيوت ورصيف المدرسة وقبة المقبرة حيث يتوسد اولياء القرية
الصالحون

واستمر يسرد الفضائح بلا خوف

- ٥ -

على المقهى المطل على البحر كان يداوم أحيانا في الليل يلتئم
شمل الشباب في السياسة والدين والجنس والخمر والقمار
والحرية ، يحكون يلتقط أحاديثهم ، واذ يمل ينحدر صوب
البيوت والحوانيت والساحات ، ينصت ويختزن ما يرى ويسمع ثم
يفادر الناس وهو يغني .

- ١٣٤ -

في احدى الليالي تأمر الشباب عليه فأسكروه في أعماقهم
كانوا يدركون انه طفل غير عادي ، وان ما يرويه يثوي في أعماقهم
لكنهم لا يجروون على البوح به ، فكرهوه واحبوه وغلفوا حبه
وكراهيته برداء من الهزء والضحك ، والحزن الخفي الضامر

في تلك الليلة شرب حتى دارت الدنيا في عينيه شعر
بحسده خفيفا يمكنه أن يطير ، ولاول مرة تجتاحه غبطة لانهاية.
ببصره شبه الزائف تفحص الحضور وتفقد الشرفة

سأل الحاضرين هل الافعى هنا ؟

— من الافعى ؟

— زلة رئيس المخفر وجاسوس المعلمين

— تامبو كاسر رأسك ؟

— رأس خلدون يكسر أما حكاياه فستحكيها الريح

تنطع أحد الشباب لانهتم خلدون نحن خلفك تامبو كلب
جبان هات ماعندك

فرحا غنى خاين يادهر واذا وصل الشطر الأخير غيرَه

الارض للحب مفتوحا عدالي

ونجم خلدون من صفرو انطفا

خيل اليه انه لمح طيف كآبة ارتسم فوق الوجوه استمر
الطيف بضع ثوان ثم انفجر ضحكا ومرارة وسخرية احس خلدون
انه خان نفسه وسمع من يعترض على نهاية البيت قليلا وجم
اهتزت اعماقه اسى بكى من داخل قال اخطأت سامحوني

وطلبوا ان يروي فضائح الفضائح افضل من الغناء فجأة
ينفجر خلدون بضحكة غريبة يتذكر الشمس والخطاطيف
والمستنقع وكالبرق تعبر شظايا من الحلم

— كان ياما كان ياشباب

ويبدأ يروي حادثة امام القرية الذي سرق ليرات جدته الرشاديات .
كانت الليرات الذهبية امانة وضعتها الجدة في حوزة الامام ايام جوع
سفر برلك بعد سنوات طلبتها لكن الامام الجليل انكرها باجداده
واولياء الله ومحمد النبي أقسم كذبا هللوب وابتلعها ثم تلا
فوقها آية ليسهل هضمها وهو يترنح من السكر أقسم بقطع يمينه
ان كان هذا الامام من ظهر أبيه واذا سألوه من ظهر من يكون؟

قال من ظهر سلالة سلطان عثمانى اسمه رشاد

وانتابتهم غاشية ضحك

اغتنم فرصة استغراقهم في الضحك وراح يحكي كيف ينقل
تامبو ليلارشاوى رئيس المخفر من الدجاج والبيض واللبن والقمح
من بيوت التجار والمزارعين وبرى حادثة زوجة المختار التي
راها تخرج ليلا من بيت رئيس المخفر وهي محجبة مذعورة ، وكيف
لمحت شبحا في الليل كان هو فتعثرت بحجر وسقطت فشج رأسها
ياشباب اذا كنت كاذبا اقتلونى غدا اذا مر احدكم بها فليُنظر
الى جبهتها المعصوبة طبعاً عندما سألها المختار مابك يا امينة ؟
قالت له كنت عائدة من زيارة ضريح سيدنا الشيخ جعفر بن نبهان
واصطدمت بعتبة القبة قدس الله سره

قدسوا ياشباب قدسوا يا الله كاس القداس الخناس الذي
يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ويرفع كأسه
ويصفيه موجة من ضحك ترتفع تضطرب مع موجات من خوف
وتوجس

خلدون ملك السهرة يسبح فوق رؤوس القوم قيثاره
الفارابي التي تضحك وتبكي وتغضب وتنيم

احد الجالسين يسأل خلدون يخرب بيتك . وصلت
فضائحك الى السلطة الا تخاف من السجن ؟

يسأل بدوره كلب السلطة موجود ؟

فيجيبونه بالنفي

منتشيا يهز رأسه كأنما دخل الآن حلقة ذكر فيتوهج
اخاف مم اخاف ؟ ماذا املك حتى اخاف ؟ الاراضي التي
املكها ولا تغيب الشمس عنها البيوت والفنادق التي ورثتها عن
جدي سيارتي زوجتي المناصب الحكومية التي انقلب فيها
وارثي منها أم الذكريات العذبة ؟ أنا خلدون العابر في هذه
الدنيا الارض كلها فراشي والسماء غطائي لاحدود ولا قيود
اينما طاب لي المقام اقيم عصفور مهاجر في دنيا الله الواسعة .
رفيق الشمس والليل ملكي أنا والريح صحاب من يوم ما طردوني
من البيت والمدرسة . بيني وبين البحر والقمر اللفة قديمة . الذي
لا يملك شيئا لا يفقد شيئا الله يسامحك بكل هذه الممالك

ويصمت يشعل لفافة الصمت أفعى تقف في مواجهة
ارنبه الانوف والافواه المفلقة ، وخلدون صار الآن كالرعد صحبة
الطبيعة والوحوش ولا صحبتكم منكم ما جاءني غير البلاء
يادود المستنقعات صدق جدي يوم قال يأتي زمان غريب
ياخلدون يصير الناس فيه غير الناس والدنيا غير الدنيا زمن
لا لون له ولا طعم يصير الكذب فيه صدقا والهباج عقلا والظلام
نورا عالم هو الى عالم الحيوان اقرب القوي يفترس الضعيف ،
والغني يقتنص الفقير ، والجاهل يحكم العاقل ، والجبان يسوس
الشجاع ، والمرأة تمتطي الرجل زمن يقول الناس فيه السكوت
من ذهب واليد التي لا تستطيع عضها قبلها واذا ابتليتسم
بالمعاصي فاستتروا والعين بصيرة واليد قصيرة وفي بلاد العميان
ضع على عينيك عصابة

وفي تلك الليلة اضاع خلدون صوابه هاجم الشباب ووصمهم
بانهم جبناء وأنذال ، وان الافعى رغم سمها الزعاف اقل اذى من
سمومهم الغافية في صدورهم ، وقال بأن الذي يرى الباطل ويستمر

فيه ، نذل مرتان الاولى لانه رآه وسكت عنه ، والثانية لانه لم
يرفع سيفه في وجهه

مثلكم كمثل الصياد الذي قتل الطيور البريئة اذ عجز
عن صيد الذئب والخنازير

ها ها ها ونجم خلدون من صفروا انطفا

ليلتها ضاقت صدورهم فانفجروا في وجهه شتموه ،
وضربوه ، وقذفوا به على درج المقهى وكان متعتا من الخمر

- ٦ -

من الفجر خب فوق الاراضي البور شمس حادة أشعتها
كأنياب الضواري ظمأ وأعياء ولات صيد صمت من الداخل
يشبه صمت البحار ظلمة موحشة تنفرد بنفسها في عالم
ضوضائي حنق

كجناح هذا الطائر المخترق اشعة الشمس ، تبدو تلك الاعماق .
حركة صغيرة في الزمن والمسافة وينشق الكون عن نهار تعجز العين
المجردة عن حصر الوانه .

في الريح جامع طائر الربيع يشطر الفراغ بجناحيه
المبسوطين ، مزهوا متلويا فوق البحيرة كفارس جاهلي يمخض
الصحراء وأخيرا يلوح الماء .

^١فضيا تحت الشمس يبرق ، حوله شجر وظلال في الافق
تترأى الطيور ، تمارس العابها ، تروح وتجيء منتشية فوق
البحيرة يخب أكثر هاربا نحو الظل والماء

تصير البحيرة مستنقعا غطاء طحلب قديم كحيوان ظامي
يتمدد ويشرق الضحل العكر الى جذع شجرة يستند بعد ان
وصل عالم الامان يراقب الطيور كالسهم تعبّر الخطاطيف
بينها وخلفها سنونوات صدرها ابيض ، خائفة ، مفتبطة وهي تخرق

- ١٣٨ -

أهاب الريح أمامه تعبر يسمع هوي الأجنحة يرى مناقيرها
والذنب المنفرج تنقض ملامسة سطح المستنقع ، غارفة حسوة
ماء ، ثم تشيل نحو الأودية في فضاء صاف ثم تعود دوران
لولبي يرسم خطوطا أهليلجية ومتعرجة عبر فراغ تحته مستنقع
راكد لعبة سيرك تبدو مطمئنة متفرجها الوحيد المثار صياد
خائب

عشرة أطفال يتقدمون يرتدون مراويلهم السود وعلى
وجوههم اقنعة ، وتامبو يقودهم بصوت رجل مقبل على معركة
يصرخ القائد هاهو طوقوه

من خلف الجدران يثبون جداران عاليان بينهما خلدون
الأطفال المتشحون بالسواد يحاصرونه من الخلف والإمام أرض
الطريق وحل ومياه محرورة وخذلون اعزل

من صوته الذي كان يدوي في الليل خاين يادهر عرفوه
فجأة يتهدج الصوت . تقطعه هذه الأشباح التي انبثقت من ضمير الليل
الأفعواني مرة أخرى الأفعى انقسمت الآن كما تنقسم أذرع
أخطبوط يجابه فريسة الأيدي تلوح بعصي وقطع حديد كلها
تبدو سوداء تامبو وحده يجر فوق الوحل جنزيرا اسود هو
الأخضر

خطاف جامح قاتم كليل جهم ، يلف الفضاء أميرا وهو يزقو ،
والشمس في سمتها الانفجاري نصف نهار ولم يصطد غير السغب
والتيه والأشعة والجري

الأعصاب قبلة حل حزام أمانها ، والخطاف يلهو مبهورا
بفضائه ، بهذا المدى المفتوح كصحراء لاتخوم لها

خذلون محاصر

يتلوى الجنزير كرقطاء في فضاء ارقط خلدون وحده الأبيض
في مركز الحصار : اشته ميتة يقولها تامبو ساخرا .

حوله يتلفت فلا يرى غير المياه والوحل ، وغير الإيسدي المسلحة ، وهذه الأوشحة تتقدم باتجاهه

الاشعة تخطف البصر بوهجها اللاق الصياد سيقتل

— أخيرا وقعت ياخلدون من ينقذك الآن ؟

في سره يهجس ومن انقذني فيما مضى ؟

وفيما مضى كان هناك منفذ الآن الطرقات مسدودة ،
وتامبو رجل قاتل في اهاب طفل ، ولا سلاح

يبدو فاقد القدرة على المحاكمة ، خطفا يدرك بانه خطأ عندما
اختار الفناء في الليالي بدون سلاح

مافائدة الاستدراك وهم يتقدمون خب خطواتهم في الوحل .
صلصلة حلقات الجزير الرعب الآن هو الحقيقة .

بالغضب امتزج وميض الحقد ، فتأرث هياج هوى من
طرف الجزير السائب على جسد الطفل الاعزل آه نوت ان
تخرج فضفطها الى الخلف وثب متحاشيا الضربة فلطم وجهه
سيخ من حديد ، احسه يكوي راسه على وجنتيه وضع كفيه ،
وكور جسده فتلغاه الجزير ضاغطا من السرة حتى الكتف اليسر
عميقا تأوه وشعر برجليه تصطكان وانزلق الوحل تحت قدميه
حاول ان يدفع شيئا مشرعا فوق راسه لكنه أحس بأصابع يده
اليمنى تنهشم سقطت فرفع اليسرى كانوا الآن في محاذاته
أصوات وحشية عصي تنهال متناوبة ومتوازية ومتقاطعة ، وكان
هو في المركز تماما في الوحل راكعا على ركبتيه يحاول ان يحمي
رأسه بسلاميات تفرز على مهل دمها الحار لم يكن قد فقد صوابه
حتى الآن . كان بامكانه ان يسمع صليل اصواتهم ممزجة بالخب فوق
الوحل ، يقتربون ، ويتراجعون ، يتناوبون الضرب وكان بامكانه
ان يحصي بين فينة وأخرى عدد الضربات قبل ان يخور ويتهاوى
ممددا فوق الوحل .

الآن بدأ الضجيج يتخافت احسوا انهم اهمدوه فابتعدوا
عرف ذلك من صوت الخطوات التي تنأى كانت هناك في زاوية
ما من وعيه بقية ومضة ، حارة ، مضيئة ، لما تنطفئ

قليلا ابتعد تامبو على عضده لف الجنزير واستوثق من
نصفه المقبوض بين أصابع كفه ، وكما تهوي فأس من أعلى هوى
الطرف المفلت على منتصف الجمجمة المكبوبة الوجه ، فدوى من
الراس صوت كالرعد ، وانبثقت شمس حارة وانطفأ مصباح
الوعي بهدوء مرتعش تقدم بعد ان رمى الجنزير امسك شعر
الراس الملوث الحار ورفع فالتقت اربعة عيون عيان هائجتان
وعيان اسيتان وسدد الصمت خنجرا

كافى كان الجنزير غائضا في الوحل ومن يد الطفل الهائج
نأت شفرة موسى حادة قلب الجسد المطروح على ظهره كان
الفم نصف مفتوح سحب لسان الطفل منه ، وبحركة مرتعشة
سريعة بتر اللسان من منتصفه ململة تشبه حركة طائر في آخر
النزع ، وصوت أنين خافت مبهم ، كل ماصدر عن الطفل المصلوب
فوق الوحل

— لن يكون بإمكانك ان تروي فضائح عن الناس بعد الآن
واختفى

— ٧ —

وقال الجد وكان ان اقتربت الشمس يابني من سمتها
العمودي في ذلك النهار الحار ، والصياد الخائب هناك على حافة
المستنقع ، واقترب الخطاف سافا وجه الصياد فأحس بمنقاره
يكاد ينفرس في عينيه وكان الهياج قد بلغ أوجه في اعماقه وخيل
اليه ان الخطاف يتحداه ، ودوى انفجار على سطح المستنقع
هوى الخطاف. اختلج ، ثم تمدد بسلام فاردا جناحيه اللامعين فوق
أعشاب الطحلب

وجاءت خطاطيف أخرى ، حومت فوق الخطاف القتييل
فسقطت قربه حتى الغروب ظل الصياد يرمي السنونات
الصغيرة رماها واذا انتهى خرطوشه ورأى الى المستنقع مفروشا
بأجساد الطيور البريئة الميتة ، غمرته غبطة فتنفس بارتياح عميق .
لم يمت خلدون .

في الايام التي تلت قرأ سكان القرية حكاية المعلم محفورة
على جدار المدرسة بحثوا عن خلدون فقطعوا يده اليمنى وبعد
أيام قرؤوا حكاية الامام المرابي محفورة على جدار الجامع
جاؤوا به وامام المصلين قطعوا يسراه ومضت أيام فقرؤوا على
جدار المخفر حكاية رئيس المخفر الزاني المرتشي منقوشة بخط
بارز ، فضاق صدرهم وقتلوا خلدون

بعد سنين من موت خلدون مات ناس وولد آخرون نموا
وسمعوا قصة خلدون وتناقلوها وازداد الاطفال عليها انهم في
بعض الليالي يسمعون أغنية خلدون الحزينة خاين يادهر ، وصدى
حكاياه ، عندما الرياح الشرقية تهب ، ويبدأ حفيف الشجر الحنون
في صمت القرية يغني .

الخسوف

قالت الأم : لاتحزن يا بني لكل انسان يومان يأكلهما ويمضي .
وكان قد مضى مخلفا وراءه الايام التي مضت والتي ستأتي وقال
المتوسد خندقه باق هنا يفصد دمي
على الارصفة واسفلت الشوارع ، كانت المرأة تهيم عارية
تطلب سترا فلا تلقى ، وتصيح على اطفالها فلا تسمع جوابا كان
الاطفال قد هجروها الآن ، وكانت هي قد افتضت من زمن بعيد ،
والعار لايني يلاحق الاطفال اينما حلوا
هاهو يمضي باتجاه الصحراء تحت سماء صيفية في ليل تجتاحه
ريح صرصر ، مزودا بالحزن وبكل يأس الارض
جميع الدروب قد سلكت ، والطلاسم ما عادت سرا ، كل
أهل المدينة كشفوا السر لكنهم لا ذوا بالصمت واللامبالاة ؛ عقلهم
الخوف والحزن الكتيمة ، والذين مضوا خارج المدينة اختاروا

الفصد أو الصحراء .

كانت المرأة وهي تمبر الشوارع تولول نادبة ، لكن الناس استمروا يعبرون قربها بصمت حجري لامثيل لقصوته

« لماذا الناس ليسوا هم يشبهون الناس بالارجل والعيون والانوف والرؤوس غمرهم ذل ختم اسماعهم بالوقر وابصارهم بالعمى » قالت المرأة لنفسها

— سأظل هنا حتى يطلع القمر حتى أصير والارض عشباً وماء حتى يروي الدم شعيرات الشجر والعشب انا والارض حطب ونار هجس المتوسد قبره

الذي لم يبق له أمل هناك ، عقله يتحرك بحيوية تشبه سطوع الشمس. ماض نحو الصحراء لا ينظر الى الخلف في كل خطوة يخطوها يزرع اليأس والحزن يقول للشجر والحجر والحيوان والانسان : غادروا ماعاد لكم غير الصحراء

بنواح قديم يبكي الشجر انا ادفأتك في ليالي الصقيع ويثن الحجر انا عمرت مدتك ويصيء الحيوان : كان لحمي طعامك في سني الجوع

ووحده الانسان لايجيب يسمع ويرى ويلوذ بالصمت يسير يسير خبيبا نحو صحرائه وهو يخرج من قفص المدينة ينثر الحزن واليأس يروي عن الذل والاغتصاب ، عن العكر الذي لوث الدم والاطفال وحليب الثدي ، والبلاد التي ينبغي أن تهجر بعد ان فسدت رعيته وراعيها وتحولت الى مبقى

في يوم عرسها كانت نقية كتلوج البراري قطعت مسافات شاسعة من الشرق حتى وصلت كانت حافية ، جائعة ، رثة الثياب ، لكن كل نضارة الارض والقمر كانت تلوح في وجهها وفي اليوم الثالث دقت لمقدمها الطبول

وفي اليوم الثالث صارت بغيا
وفي اليوم الرابع بدأت الحرب

هاهي في الشوارع ماتزال تندب ، المارة عيون من صوان لامع .
تقول انا البهية التي من أجلها كان الفرح وكانت الفصول رغيف
الفقراء ولباس العراة وسكينة قلوبكم انا
الارض والشمس والشعر ولدت لأجلي اصير في آخر
الدهر عاهرة عارية منبوذة في الشوارع
والمارة أعمدة تتحرك لا كلمة ، لالفة شلال هموم
وطفيان من الذل اللاحدود له

قبل أن يمضيا عنها سألاها الى متى يستمر هذا العار ؟
فردت حتى تبلغا سن الرشد
- وما سن الرشد ؟؟

- سن استلام دفعة الريح

وقال الذي يمضي صوب الصحراء أنا يائس وكئيب
وضرب الآخر رجله في الارض وأنا سأموت غسلا للعار
كالنقوش الملونة تلوح على الشاشة السوداء اذ تطبق الجفون ،
هكذا كانت تلوح صحراء الهارب ، مملكة الذي قرر أخيرا أن يتطهر
بالرمل وطقوس اليأس

عالم لا نهائي ، ملون ومفتوح من الاقصى الى الاقصى . مسوى
كمهد الصحارى يتأرجح داخل الذهن المشتعل بالحيوية
في الصحراء تموت الضوضاء يفتسل العار بحرارة الرمل .
يصير اليأس المطلق الى تقيضه وفي الصحراء يمكن للعقل ان يعمل
بهـدوء

- لكل انسان يومان ثم تضيف الارض الواطئة يابني
تشرب ماءها وماء غيرها

وكوحش مطعون يصرخ في وجهها لكن الارض الواطئة
تطوؤها جميع الاقدام ولأنك ارتضيت ذلك اغتصبوك في عز الظهيرة
وبهدوء تروي انها تعرف الاشياء ظاهرها وباطنها ، الكذب

الومض م- ١٠ - ١٤٥ -

والصدق ، الخيانة والنبل ، المجد والعار لكنها لا تريد ان
تفقدهما وتصبح سبية في آخر الزمن
— ولكن ما الذي بقي فينا ولم ينتهك ؟ قال اليائس
ويجب الآخر : الموت

— موت موت اغنية الكبرياء القديم والآية التي تتلا على
قبور الشهداء الموت هذا الكفن الذي تريد ان تتشبع به كي
لا يقال عنك انك جبان ومهزوم انا لا اغنية لي ولا كتاب لا اب
لي ولا ام ولا فرح سأمضي عن هذا الجحيم وليكن الطوفان
العقل هذه الزهرة المفتحة ابدا هذه الشمس التي لاتنمس
تغيب وراء بحار لتضيء بحارا اخرى من قطب الى قطب تسري .
ويظل العقل ناصعا كثوب عرس الام قبل ان تصير الى بغي
عندما خلق الله الانسان اعطاه العقل وتركه حرا

وعندما التقى انسانان على سطح الارض بدأ القتل
وعندما اختفى العقل صار القتل شريعة

واذا هاجر العقل احتل الهياج والموت أرض البشر

هوذا القتل والاعتصاب ما يزالان اغنية البشر المفضلة

بين اليأس في ذراه ، والموت . بين العقل والكبرياء ، تتمدد
هذه الام فراشا من عار ودم عليه يستلقي طفلان كان يمكن ان
يكونا من اب شرعي

— من يكون ابي ؟؟

صمت تجرّض الام بريقها يسري العار مسا كهربائيسا
يجتاح ذرات الجلد يصل مركز العقل مركز الذكرى ، فتنشج
المتوسد خندقه الآن قال : لانتحبي الدم هو المطهر
بأصابعه يتناول حفنة من تراب الارض يفرکہا يشم
رائحتها ، ومن ما وراء العقل تنتشر الروائح روائح العشب والماء
والبحر والحب

— الوطن موت

ويعبر الفضاء طائر صدره أبيض وفي منتصف البياض بقعة

حمراء الطائر يخفق جناحاه بوهن كأنما اخترقته طلقة ، ووراء
الخدق يسقط

مضي والصحراء بعيدة محطة مسافر هجر العالم مطاردا
باليأس والعار وفي مركز عقله صورة تذكارية للام التي اغتصبت
في زحمة الضوضاء فجاء سفاحا وهذا الهارب رمح مكسور ملقى
من زمن بعيد قرب فراش الام ، والآخر وشاح حداد في مأتم لم
يبك فيه الا الفقراء الذين فرحوا حتى الاعياء وفي ختام العرس
قيل لهم انتهى الاحتفال

— مجاناً تموت قال اليأس لآخيه

— لكن اليأس ستار النذل رد الذي لم يياس

— اليأس والموت اخوان

وأجاب الآخر حتى الشجر الاصم يقاوم ضربات الفأس
باحترام قال الآخر لكن الفأس بيد من اغتصب امك وهي
تهوي فوق جمجمتك كما ترى

— الا تميز بين الحق والباطل؟؟

— عندما يصير الباطل حقاً والحق باطلا لا يبقى لنسا غير

الصحراء مركز العقل والصحو

يستخدم النقاش بين الاخوين يتلو الصمت آية ويزداد هبوب
الريح والمرأة ترى وتسمع في سرها تدعو ان تتوقف الريح
ويأتي الهدوء الريح لا تتوقف والذاكرة انصعقت وفي عيني الام
يثرى كل حزن الارض كل قهر الارض

فراق المربية الاخيرة في أرشيف كل أسرة المرأة وطفلاها
سفينة دهمها اعصار

اعصار ولد من النظفة الحرام من طعنة صخرة مدببة
والسفينة ماضية فوق سطح المياه باسم الريح مجراها

كل منهم في قطبه يدور هي في الشوارع عارية تدور كل
من يراها ويسمع نحيبها يعرف حكايتها ويمضي عنها يمضي وفي
سره كلمة هاجسة عاهرة والريح تقاذفها ، تلسع الجلد الذي
ترهل . الجلد الذي كان في لون الثلج وحرارة النار وصلابة الصخر .

وحده وحده تملأ الريح رئتيه حاملة طقوس الماضي
رائحة الام كرائحة الارض ، كرائحة الدم ، كرائحة هذا الفجر
الذي ابتدا وهو الآخر يدور

والهارب مازال يغذ السير عقله يتألق بكل حيوية اليأس
يصيح بالحجر والشجر والحيوان والانسان والماء ان تتبعه الى
الصحراء الشجر والحجر والحيوان والانسان والماء لاتتبعه
يناديه فتناديه تذكره بالظل والمأوى بالجوع والظما وهو
يمضي صوب مملكة بناها العقل وهم العقل

مملكة قديمة عمرها بعد ان هاجر الامل والتاث الفرح

الصحراء الصحراء انزعوا جذوركم واتبعوني عندي
ماء للعطاش واحات من حب وشعر. عندي حرية وشمس. هناك
تعود للانسان طفولته الاولى مملكة بلا جنود ولا ملوك ولا خصيان.
اتبعوني يا حزاني الارض اهجروا مدن العار والضوضاء
لم يبق لنا غير الصحراء
انه يدور

عندما اطل القمر كان في الخسوف كان وجه القمر في لون
غبار الصحراء

ورأى ناظر القمر ان ليله كان طويلا لم يضئه قمر ساطع
بغثة اصابته رعشة اختلج في خندقه حاول ان ينهض فأحس
بالعجز ورأى الدنيا تدور كان وحيدا وفي صدره وردة حمراء
شعر الآن انه والارض عشب وماء

وغاب القمر واطلت شمس واذا اقترب الهارب من تخم
الصحراء انفجرت الشمس وأضيء الكون بنور غمر الارض
قال رجل عابر للمرأة العارية هي ذي سترتي لاتحزني
يا اماء لكل انسان يومان يأكلهما ويمضي
ثم سكنت الريح

